تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي

(حتى الفتح العثماني)

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

مدرس التاريخ الاسلامى

بجامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٦١



دار المعارف بمصر

البطلمية والرومانية مثل المنار ومسلتى كليوباتره وعمود السوارى والشوارع المقنطرة (١) المرصوفة بالبازلت والمفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون . وممن زارها من الرحالة فى العصور الوسطى : ياقوت الحموى، وابن رشيد السبتى، وابن سعيد المغربى، وابن جبير، وابن بطوطة، وناصر خسرو، والعبدرى وبنيامين التطيلى . . . إلى آخره .

وهكذا اهتم المؤرخون القدامى والمحدثون بدراسة تاريخ هذه المدينة فى العصرين اليونانى والرومانى ، وذكر آثارها القديمة، فى حين لم يلق تاريخها الاسلامى منهم إلا عناية شاحبة هزيلة لاتشبع هوى الباحث أو الدارس لتاريخها هذا . كذلك لم تلق الاسكندرية فى العصر الاسلامى العناية والاهتمام اللذين لاقتهما مدينة القاهرة مثلا ، ولعل ذلك يرجع إلى الطابع اليونانى الذى كانت تتميز به الاسكندرية رغم تعريبها أو إلى ضياع الجزء الأعظم من معالمها الإسلامية بسبب تطور عمرانها وتجدد هذه المعالم . وهكذا ظل جانب هام من تاريخ هذه المدينة العظيمة مهملا حتى ظهرت الأبحاث القيمة التى

= أن الاسكندر أصاب فى الاسكندرية «أثر بنيان وعمداً كثيرة من الرخام وفى وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند وهو القلم الأول من حمير وملوك عاد : أنا شداد بن عاد، شددت بساعدى الواد ، وقطعت عظيم العماد وشوامخ الجبال والأوطاد وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . . » (الخطط ج ١ ص ١٤٩) .

(١) ذكر المقريزى أن « أسواقها وشوارعها وأزقتها كانت مقنطرة كلها لا يصيب أهلها شىء من المطر » (المرجع السابق ص ١٥٠) . ولقد أعجب الرحالة المسلمون بشوارع الاسكندرية فقد ذكر ياقوت الحموى عن الأزهر بن معبد أنه قال : « قال لى عمر بن عبد العزيز أين تسكن من مصر ، قلت أسكن الفسطاط ، فقال أف أم نتن ، أين أنت عن الطيبة . قلت أيتهن هى ، قال الاسكندرية .(أنظر معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٨) وذكر ابن حوقل النصيبى : أن للاسكندرية « طرقات مفروشة بأنواع الرخام والحجر الملون » (ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥١) ووصف ابن جبير الأندلسى شوارعها فقال : « ما شاهدنا بلدا أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أحفل منه » (الرحلة ص ٤٠) .

نشرها الدكتور جمال الدين الشيال والدكتور محمد عبد الهادى شعيرة والأستاذ حسن عبد الوهاب،فكشفت هذه الأبحاث القيمة عما خفى من هذا التاريخ . ومع ذلك فمازال تاريخ هذه المدينة فى العصر الاسلامى فى حاجة إلى المزيد من الأبحاث العلمية ، خاصة بعد أن أسفرت الأبحاث الأثرية فى أرض الاسكندرية عن كشف أجزاء من سورها الإسلامى مما قد يساعد على إعادة تخطيط المدينة كما كانت فى هذا العصر .

ولقد تنبهت جامعة الإسكندرية إلى أهمية دراسة تاريخ الإسكندرية فى العصر الإسلامى،وحرصت على تدريسه بكلية الآداب منذ العام الماضى لاتصاله إتصالا مباشرا بالتاريخ العام لمصر الإسلامية،ولعلاقته الوثيقة بتاريخ الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط ، وللدور الرائع الذى لعبته مدينة الإسكندرية فى المجال العلمى والسياسى والاقتصادى فى مصر منذ الفتح العربى حتى العصر الحاضر .

ولقد كان لى الفخر فى تدريس هذه المادة لأول مرة فى العام الدراسى ١٩٥٩ — ١٩٦٠ فرأيت أن أجمع هذه المحاضرات وأنشرها فى هذا الكتيب حتى يتيسر لطلاب الجامعة الإفادة منها على أكمل وجه .

والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

الإسكندرية فى فبراير سنة ١٩٦١

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

كان الاسكندر الأكبر يؤمن كل الإيمان بتفوق الحضارة الإغريقية على غيرها من الحضارات المعاصرة لها، فعمد لذلك إلى نشر هذه الحضارة فى البلاد التى تغلب عليها ، ودخلت فى فلك الإمبراطورية اليونانية . وكان لابد له أن يؤسس لهذا العالم المتأغرق مركزا حضريا يحقق له غايته من نشر وإشعاع الحضارة الهلينية فى بلاد الشرق القديم (١) . فلما افتتح صور فى يوليو سنة ٣٣٢ ق.م. بعد حصار دام سبعة شهور ، زحف إلى مصر ودخلها ، ولم يجد صعوبة فى فتحها ، ورحب به المصريون وتوجوه ملكا على مصر فى معبد الإله بتاح بمفيس (٢) . وقضى الاسكندر فصل الشتاء فى منفيس ثم ركب فرع النيل الغربى المعروف بالفرع الكانوبى (٣) متجها إلى واحة آمون المعروفة اليوم بسيوة ، فوصل مصب هذا الفرع الكانوبى فى كانوب ، ورحل بعد ذلك إلى بحيرة مريوط ، ومنها أدرك قرية ساحلية تقع على بعد أربعين ميلا شمال غربى نقراطيس لايسكنها إلا نفر من صيادى الأسماك

---

(١) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة الجزء الأول القاهرة ١٩٤٦ ص ١٣ . زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان : مقال فى الكتاب الذى قدمته الغرفة التجارية بالاسكندرية بالمعرض الزراعى الصناعى سنة ١٩٤٩ ص ٣٥ .

(٢) Breccia, Alexandria ad Ægyptum, p. 24 — زكى على : المرجع السابق ص ٣٤ .

(٣) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ١٩٤٢ ص ٥

وكانت هذه القرية تعرف باسم راكوتيس Rhakotis (١) (راقودة عند العرب) . ويذكر آريان أنه اختار هذه البقعة لتأسيس المدينة التى سماها باسمه قبل أن يرحل لزيارة معبد آمون . وقدر لهذه المدينة الخالدة أن تصبح من أعظم مدن العالم كما قدر لها أن ترث مدينة صور فيما بلغته من ازدهار اقتصادى .

وذكروا فى تبرير اختيار الاسكندر لهذا الموقع بالذات أن هذا الميناء لا يتعرض للتيارات البحرية فى شرق حوض البحر المتوسط التى كانت تدفع الرواسب النهرية التى يحملها النيل إلى مصبه نحو الشرق ، وأن هذه الرواسب كانت تهدد بسد الموانى ، الواقعة على البحر شرق الدلتا ، وذكروا أن وجود جزيرة فاروس على مقربة من شاطىء راقودة ، ووجود بحيرة مريوط التى كانت تحتشد فيها السفن القادمة من جنوب مصر ووصول مياه النيل إلى المدينة عن طريق ترعة شيديا التى تتفرع من الفرع الكانوبى عند شيديا (٢) ، كل هذه الأسباب دفعت الإسكندر إلى اختيار هذه القرية موضعا لمدينة الاسكندرية (٣) . ويرى الأستاذ زكى على أن هناك عوامل مختلفة أدت إلى اختياره هذا بعضها عوامل ذات طابع اقتصادى وأخرى ذات صبغة حربية وسياسية ، فقد كان موقع الاسكندرية شبيها بميناء صور

---

(١) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثانى ١٩٤٤ ص ١٢١ — ١٢٢ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ .

(٢) تتفرع هذه الترعة إلى فرعين عند حجر النواتية يسير أحدهما فى محاذاة الشاطىء إلى كانوب (أبى قير) بينما يتجه الآخر إلى الاسكندرية ويدور جنوب المدينة ثم يصب فى الميناء الغربى المعروف بالصندوق وإن كان برشيا يعتقد أن هذا الفرع كان يصب فى الميناء الشرقية (ص ٧٨) .

(٣) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها . . ص ١٣٥ ، فؤاد فرج : الاسكندرية سنة ١٩٤٢ ص ٥ .

الحصينة وأن الشبه استلفت نظر الاسكندر الذى كان ينشد تأسيس ميناء حصين يسيطر من حيث موقعه الاستراتيجى على شرق حوض البحر المتوسط ويتحكم فى الطرق التجارية العالمية فى آن واحد باعتباره مركزا للتجارة يربط مصر بالعالم الإغريقى (١). ويأبى الأستاذ زكى على برأى آخر فى مقاله عن " الإسكندرية فى عهد البطالمة والرومان " فيذكر أن راقوده كانت تؤلف المنفذ الرئيسى بين مصر وممالك البحر المتوسط والمركز التجارى الهام مع بلاد الإغريق فى عصر الأسرات السادسة والعشرين والتاسعة والعشرين والثلاثين، وأنها كانت أسهل للاتصال بالعالم الإغريقى من الفرما مما دفع الاسكندر إلى إختياره لموقعها حتى يقيم عليه مدينته الجديدة(٢)، ويرجح بريشيا أن اختيار الاسكندر لهذا الموقع جاء نتيجة لقربها من نقراطيس المركز التجارى الهام، ولمواجهتها لجزيرة فاروس (٣). ويرى الدكتور إبراهيم نصحى أن الاسكندر، فيما يظهر، قد هدف من إنشاء الاسكندرية فى هذا الموقع أن يجعلها ثغرا مقدونيا يخلف صور فى العالم التجارى، خاصة وأن مصر لم تكن لها موانىء جديرة بها على شواطىء البحر المتوسط(٤)؛ على أن الدكتور إبراهيم جمعة يرى أن فكرة بناء الاسكندرية جاءت عفو خاطره، لأنه حين استولى على صور لم يكن قد فكر بعد فى تأسيس مدينة الاسكندرية، وأن بناء الاسكندرية لاعلاقة له بأغراض تجارية (٥). إلا أنه مما لاشك فيه أن الاسكندر ضمن لمدينته أن تكون واسطة عقد التجارة

---

(١) زكى على : الاسكندرية تأسيسها ص ١٣٨ — ١٤٥ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٥ .

(٢) زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) Breccia, Alexandria Ad ÆgyptumP, 25

(٤) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ١٣ .

(٥) إبراهيم جمعة : جامعة الاسكندرية القاهرة ١٩٤٤ ص ٢٣ .

بين الشرق والغرب وهو ما كان يسعى جاهدا إلى تحقيقه بعد أن اتسعت إمبراطوريته وأصبحت تضم آسيا الصغرى وفينيقية وفارس ومصر ، ويدل اختياره لهذا الموقع على بعد نظره وحسن تقديره ، فكانت راكوتيس التى اختارها لهذا الغرض لاتعدو أن تكون شريطا ساحليا ضيقاً يقع بين البحر شمالا وبحيرة مريوط جنوبا،وتشرف عليه جزيرة فاروس الصخرية من الشمال،وتقوم بمثابة حاجز طبيعى لحماية الميناء من طغيان البحر وأنوائه . ويذكر جاستون جونديه Jondet أن بقايا الأرصفة التى كشف عنها فى قاع البحر بالقرب من جزيرة فاروس تدل على أن جزيرة فاروس كانت تستخدم كميناء قديم منذ عهد رمسيس الثانى وظيفتة حماية مصر من طغيان سكان البحار ، ويستند جونديه إلى ضخامة الأحجار وتشابهها بأحجار الأبنية الفرعونية (١) . والواقع أننا لا يمكن أن نقطع برأى فى هذا الموضوع مادمنا لم نفحص هذه الآثار ، على أننا لا نستبعد أن تكون هذه الأحجار من بقايا معبد السيرابيوم ، فقد ذكر المقريزى فى الخطط . " أنه كان حول (عمود السوارى)نحو أربعمائة عمود كسرها قراجا والى الاسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ورماها بشاطىء البحر ليوعر على العدو سلوكه إذا قدموا "(٢)،أو من بقايا الأهرامات الصغيرة التى هدمها صلاح الدين واستخدم أحجارها فى بناء الأسوار والقلعة (٣) وعهد

---

(١) Gaston Jondet, Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos (M. I. E. vol. IX, le Caire 1916.
زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٣٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٩ .

(٣) شاهد ابن جبير سنة ٥٧٩ ﻫ (١١٨٣ م) (المدينة القديمة المنسوبة ليوسف الصديق وبها موضع السجن الذى كان فيه وهو الآن ينقض وينقل أحجاره إلى القلعة المبتناة الآن على القاهرة) ص ٥٧ . وشاهد أيضا موضعا فى منية ابن=

الاسكندر إلى المهندس دينوقراطيس Dinocrates بتخطيط الإسكندرية وتولى كليومينس النقراطيسى Cleomenes الإشراف على أعمال البناء، إذ كان يقوم بادارة الشؤون المالية فى عهد الاسكندر (١) . وقام دينوقراطيس بتطبيق نظام التخطيط الإغريقى الذى ابتدعه هيبو داموس الميليطى Hippodamus فى القرن الخامس قبل الميلاد وطبقه فى رودس وهاليكارناسوس (٢) ، ويتميز هذا النظام بتقسيم المدينة إلى شوارع مستقيمة تتقاطع فى زوايا قائمة بحيث يتألف من ذلك ما يشبه رقعة الشطرنج (٣). على أن تخطيط الاسكندرية لم يتم فى حياة الاسكندر ، إذ مات فى ١٣ يونيو سنة٣٢٣ ق.م. بمدينة بابل وهو شاب فى سن الثالثة والثلاثين . وبموته يبدأ عصر جديد هو العصر الهلينستى (٣٢٣ — ق.م. ٣١ ق.م.) ونعنى به عصر الحضارة المتأغرقة أو

= الخصيب اسمه أنصنا (كان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين وجعل على كل مركب منحدر فى النيل وظيفة من حمل صخره إلى القاهرة فنقل بأسره إليها) ص ٥٨ .

وذكر الشيخ عبد اللطيف البغدادى المتوفى عام ٦٦٨ هـ أنه كان بالجيزة عدد كثير من أهرامات حجرية صغيرة « فهدمت فى زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب على يدى قراقوش أحد الأمراء ، وكان خصيا روميا سامى الهمة ، وكان يتولى عمائر مصر، وهو الذى بنى السور من الحجارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينها وبالقلعة التى على المقطم وأخذ حجارة هذه الأهرامات الصغار) أنظر عبد اللطيف البغدادى، كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ ص ٢٣ .

(٤) Breccia, Alexandria ad Ægyptum p. 26.

(٥) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٨ .

(١) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ح ١ ص ٣٢٤ — زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٢ . ولقد لاحظ مؤرخو وجغرافيو العرب هذا النظام فأشار إليه ياقوت صاحب المعجم فقال « وهى شطرنجية ثمانية شوارع فى ثمانية » المجلد الأول ص ٢٦٠ . وظل هذا النظام قائما حتى أيام المماليك فقد وصفه ابن شاهين الظاهرى بقوله « وهى مدينة مركبة على عمد ، وشبهها بعضهم لرقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » أنظر كتاب زبدة كشف الممالك ص ٤٠ .

الحضارة الإغريقية التى اكتسبت كثيرا من الصفات المحلية أو العناصر المشرقية ، فابتعدت بعض الشىء عن صفتها الأصلية وهى الصفة الهلينية. وانتشر هذا النوع من الحضارة فى النواحى الشرقية للإمبراطورية الإغريقية ، ولكن مصر امتازت عن غيرها من البلاد المتأغرقة وأصبحت تحتل المركز الأول لهذه الحضارة من جميع الوجوه (١) .

حاول قواد الاسكندر أن يتفقوا فى بابل على تنصيب خلف للإسكندر ، ولكن اتفاقهم لم يكن إلا ظاهريا ، إذ أجمعوا أخيراً على تنصيب أخ غير شرعى للاسكندر كان مصابا بالصرع والبله اسمه أرهيدا يوس الذى لقب بفيليب ، والاعتراف بحق روكسانا الفارسية زوجة الاسكندر فى إشراك طفلها — إذا جاء ذكرا — مع فيليب فى شؤون الملك ،وتعيين بر ديكاس الوصاية عليها . وقام بر ديكاس بمهمة توزيع حكم ولايات الامبراطورية بين القواد ،فمنح حكومة مصر لبطليموس بن لاجوس الذى عرف باسم سوتر أو المنقذ ، وكان يطمع فى الظفر بها ، نظير اعترافه بمركز بر ديكاس كوصى على الملكين ، كما عين كليومينس النقراطيسى مساعدا لبطليموس فى مصر . وشرع بطليموس حكمه فى منف بالتخلص من كليومينس حتى لا يكون رقيبا عليه ، خاصة وأنه كان يهدف إلى الاستقلال بمصر عن الإمبراطورية ، فأمر بقتله ومصادرة أمواله . وازداد نفوذ بطليموس بعد ذلك عندما استولى على برقة سنة ٣٢٢ ق.م. وضمها إلى أملاكه . وأثار بذلك غيرة زملائه وعلى الأخص بر ديكاس الذى غضب لقتل كليومينس . وكانت الفتن قد اشتعلت فى سائر أنحاء الامبراطورية ، ودبت الانقسامات بين أفراد الأسرة المالكة . وازدادت مطامع الولاة فى الاستقلال وقامت

(١) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٢٠ ، لطفى عبد الوهاب : مقدمة لحضارة الاسكندرية ص ٤ ، ١٧ ، زكى على : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٩ .

بينهم الحروب وقنع بطليموس بتتبع هذه الأحداث من بعيد : فانتهز فرصة انشغال برديكاس فى آسيا واتفق مع أرهابايوس سرا على الفوز بجثة الاسكندر التى قرر اجتماع بابل فى يونيو سنة ٣٢٣ ق.م. دفنها فى مقدونيا . ويبدو أنه كان يهدف من وراء ذلك تدعيم مركزه السياسى والروحى فى مصر . وكان قواد الاسكندر قد عهدوا إلى أرهابايوس بمهمة إعداد التابوت الذى توضع فيه الجثة ، وتنظيم احتفال كبير لدفن الجثة فى إيجى (١) . وفى أواخر عام ٣٢٢ ق.م. وصلت جثة الاسكندر إلى سوريا فانتقل إلى هناك ونقلها إلى مصر حيث دفنها بادىء ذى بدء فى منف ريثما يتم بناء مقبرة لها فى الاسكندرية فيدفنها هناك . وكان ظفر بطليموس بجثة الاسكندر كسبا سياسيا له وطد مركزه ، ودعم منصبه كوريث للإسكندر فى مصر ، كما كان صفعة لبرديكاس وتحديا له وكان لابد لبرديكاس من كسر شوكة بطليموس والقضاء عليه باعتباره أشد خصومه وألد أعدائه ، فأعد الحملات إلى مصر وحاصرت قواته بيلوز ، ولكنه فشل فى اقتحامها وثار عليه جنده و قتلوه . وهكذا أخفق فى سياسته وراح ضحية أطماعه . وبموت برديكاس ثبت بطليموس على عرش مصر وأخذ يعمل على تقوية دعائم استقلاله ، والاتجاه بسياسة مصر نحو البحر المتوسط الذى أخذ يؤلف مركز الحضارة ، بعد أن كانت تتجه فيما مضى إلى آسيا ، فعقد أحلافا مع جزر شرق البحر المتوسط ، وأعد نفسه لاختيار الاسكندرية عاصمة له فى مصر . وفى سنة ٣١٩ ق.م. هاجم جنوب سوريا واستولى عليه ؛ إذ كان يطمع فى غاباته الغنية لاستخدام أخشابها فى بناء أسطوله ، تمهيدا لاصطناع سياسة بحرية .

وتألقت الحياة الاقتصادية فى مصر فى عهده ونمت موارد الدولة ، فاستغل ما لديه من أموال فى تجميل الاسكندرية ، واستكمال عمرانها ، وإعدادها لتكون جديرة بمركزها كعاصمة للبلاد ، وبؤرة للحضارة الاغريقية . فأقام

(١) إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٣٤ .

بها الأبنية العظيمة . وسار على نهج الاسكندر فى مصادقة المصريين دينيا ، إذ كان قد أسس فى الاسكندرية معبدا للإلهة إيزيس المصرية حتى يوفق بينه وبين المصريين . وفى نفس الوقت أقام معابد أخرى للآلهة اليونانية . فحرص بطليموس على إيجاد دين مشترك يربط بين الشعب اليونانى والشعب المصرى ويقرب بينهما . فجعل للبلاد معبودا جديداً اسمه سيرابيس Serapis، وأقام له معبدا عظيما جنوبى الاسكندرية فى الحى الوطنى الذى كان يعرف براكوتيس (١) .

ازدهرت الاسكندرية فى عصر البطالمة ، واتسعت مرافقها ، ونمت عمائرها ، وأقيمت فيها المنشآت الجليلة الرائعة وأصبحت تفوق غيرها من المدن اليونانية الرومانية ، خاصة بعد أن نقل إليها بطليموس جثة الاسكندر ودفنها فى السما . لقد حرص بطليموس سوتر على تزويد الاسكندرية بكل ما تحتاج إليه من تزيين وتنميق ، لاستكمال عظمتها ، فربط بين جزيرة فاروس وبين المدينة برصيف أو جسر طوله نحو ١٢٥٠ مترا وعرضه نحو ٣٠ مترا سمى بالهبتاستاديوم Heptastadium وقد قدر لهذا الرصيف أن يتسع بمضى الزمن ويصبح حيا هاما من أحياء المدينة ، وبذلك قسم ميناء الاسكندرية إلى ميناءين : أحدهما شرقى ويعرف بالميناء الكبير Megas Limen ، والآخر غربى يسمى ايونوستوس أى الصندوق Eunostos ، ويعرف بميناء السلام (٢) وهو الميناء الحالى ، وقد سمى بالصندوق لأنه مقفل من سائر الجهات ، وكانت تصب فيه قناة متصلة ببحيرة مريوط . وكان هذان الميناءان يتصلان بعضهما ببعض عن طريق ممرين محصنين ، فتحا بالجسر عند طرفيه

---

(١) زكى على : الاسكندرية : تأسيسها ص ١٥٥ — الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٢ .

(٢) زكى على ، الأسكندرية : تأسيسها ص ١٦٠ — الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٩ . Breccia: Alexandria Ad Ægyptum, p. 68, 78.

الجنوبى والشمالى . ومد بطليموس من الطرف الشمالى لرأس لوكياس Cape Lochias شريطا صخريا ينحنى نحو الغرب ، وظيفته حماية الميناء الشرقى من أنواء البحر وعواصفه . واتخذ بطليموس لنفسه ميناء داخل الميناء الشرقى ، جنوبى جزيرة أنتيرودوس ، سماه الميناء الملكى أو ميناء الملوك ، وبذلك أصبح ميناء الإسكندرية يفوق سائر موانىء البحر المتوسط .

وكانت المدينة فى عصر البطالمة تمتد من الشرق إلى الغرب بحذاء الساحل ، بحيث تؤلف شكلا مستطيلا طوله يفوق عرضه، وتتخلله شبكة من الطرق المستقيمة المرصوفة بالبازلت الأسود أو الأصفر (١) تتقاطع فيما بينها : سبعة ممتدة طولا بحذاء الساحل ، واثنى عشر تقطعها عرضا من الشمال إلى الجنوب . وقد ذكرنا أن الفضل فى هذا التخطيط الشطرنجى يرجع إلى دينوقراطيس . وكان يخترق المدينة بطولها من الشرق إلى الغرب ، وبعرضها من الجنوب إلى الشمال شارعا ن رئيسيان، لا يقل اتساع الواحد منها عن ثلاثين مترا ، الأول يسمى الشارع الكانوبى ، لأنه يمتد من الباب الشرقى حتى ضاحية كانوب (أبى قير حاليا) ، متتبعا طريق الحرية فى الوقت الحاضر (٢) ثم يمتد من الباب الغربى حتى شاطىء البحر ، وكان يزدان على جانبيه بالأعمدة والتماثيل كما كانت تتخلله أقواس النصر . أما الطريق الثانى فكان يقطع الطريق الكانوبى فى وسطه ، ويتفق تخطيطه مع خط شارع النبى دانيال فى الوقت الحاضر . وكان لهذا الطريق العمودى على البحر نفس اتساع الطريق الكانوبى وكان يزدان كذلك بالتماثيل والأقواس والأعمدة ،

---

(١) يرى الأستاذ نوك Noak أن البازلت الملون الذى رصفت به شوارع المدينة من العصر الرومانى ((Breccia, op. cit. p. 72)) .

(٢) فند بريشيا الأراء المعارضة لنظرية اتفاق الطريق الكانوبى القديم مع طريق أبى قير وانتهى إلى تأييد فكرة مطابقة تخطيط الشارع القديم مع الشارع الحالى . (أنظر بريشيا ص ٧٤) .

وقد أطلق على هذا الشارع اسم السيما تحريفا من كلمة السوما ، وهى كلمة إغريقية معناها الجسد ، وقد سمى كذلك بسبب وقوع ضريح الاسكندر فى نقطة التقاء هذا الشارع مع الشارع الكانوبى فى الميدان المسمى باسم Meson Pedion (١) . وكان يقوم على جانبى كل من هذين الشارعين باثكتان ممتدتان بطولها بحيث تؤلفان ممران على جانبى الطريق يحتمى تحتها المارة من سقوط المطر أو حرارة الشمس . ولقد أطلق بطليموس فيلادلفوس على شوارع المدينة اسم زوجته اريسينوى يضاف إليها ألقاب آلهات الإغريق التى شبهت بها : مثل أرسينوى بازيليا ، وأرسينوى تليا ،وأرسينوى الألوسية ،وأرسينوى خالكيويكس (٢) .

وكان يحيط بالإسكندرية سور حجرى عظيم مزود بالأبراج الضخمة ، يفوق فى اتساع نطاقه أسوار المدن الإغريقية الأخرى باستثناء أسوار سيراقوصة وأثينا (٣) . ويبدو أن هذه الأسوار كانت من بناء بطليموس سوتر وفقاً لما ذكره تاسيتوس ، وكانت الأسوار من الجهة الشمالية الشرقية تمتد بحذاء الشاطىء حتى رأس لوكياس ثم تتجه نحو القناة المتفرعة من الفرع الكانوبى (٤) . ويعتقد بوتى Botti أن الجزء الشمالى من المدينة المطل على الساحل لم تكن به أسوار ، وأن أسوار الجانبين الشرقى والغربى كانت ثلاثية أى تتألف من ثلاثة أسوار ، وذكر المقريزى أنه كان على الاسكندرية

---

(١) إبراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ .

(٢) إبراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ج ١ ص ٣٢٥ — زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ص ١٦١ .

(٣) Breccia, Alex. Ad. Ægyptum, p. 69. يذكر محمود باشا الفلكى أن محيط الأسوار كان يبلغ نحو ١٥٨٠٠ مترا وأن طولها كان يبلغ ٥٠٩٠ م وعرضها يتراوح ما بين ١١٥٠ ، ٢٢٥٠ م .

(٤) Breccia, op. cit. p. 71



(شكل ١)جانب من البرج الروماني بالشلالات

سبعة حصون منيعة وسبعة خنادق (١) . وذكر السيوطى هـذه العبارة نقلاً عن ابن عبد الحكم عن عبد الله بن طريف الهمدانى (٢) ،أما ابن رسته فقد أشار إلى أسوار الاسكندرية إشارة عابرة عند حديثه عن الطريق المائى الواصل بين الفسطاط والاسكندرية ،فيذكر أنه يخرج من الفسطاط فى سفينة ، ثم ينحدر فى النهر فيسير مسافة ثلاثين فرسخا (أى ما يقرب من مائة وستين كيلومترا) لايرى عن يمينه وعن يساره سوى النخيل والبساتين والضياع حتى ينتهى إلى سور الإسكندرية (٣) .وكان ينفتح فى سور الاسكندرية أربعة أبواب كان يطلق على الشرقى منها اسم باب الشمس، وعلى الباب الغربى باب القمر (٤) . ولقد تعرضت هذه الأسوار للتجديد فى العصر الرومانى أيام هادريان وأنطونيوس .

وكانت المدينة فى العصر البطلمى تنقسم إلى خمسة أحياء متجاورة ، رمز لكل منها بأحد حروف الهجاء اليونانية وهى ألفا ، بيتا ، جاما ، دلتا ، ابسيلون .(٥) وقد ذكر السيوطى نقلا عن ابن عبد الحكم أنه كانت بالاسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جانب بعض : هى (ا) موضع المنارة وما والاها (ب) والاسكندرية وهى موضع قصبة الاسكندرية فى عهده (ج) ولقيطة ، وأنه كان يحيط بكل من هذه المدن سور ويضم المدن الثلاثة جميعا سور جامع (٦) . هذا وقد اختلف المؤرخون فى تحديد موقع هذه

---

(١) القريزى ج ١ ص ١٤٨ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ .

(٣) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ١١٨ .

(٤) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها ص ١٦٠ ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٤٩ جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، المجلة التاريخية المصرية أكتوبر سنة ١٩٤٩ ص ١٩٦ .

(٥) ابراهيم نصحى ، تاريخ مصر فى عهد البطالمة ص ٣٣٠ —
Breccia, op. cit. p. 68.

(٦) أنظر السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٧ ، القريزى ج ١ ص ١٤٨ .

الأحياء على وجه الدقة . وأهم هذه الأحياء الخمسة ثلاثة هى : الحى الملكى والحى اليهودى والحى الوطنى .

فالحى الملكى يشغل الجزء الشمالى الشرقى من المدينة وهو الحى المعروف باليونانية باسم بيتا ، وكان يضم القصور الملكية والبساتين الممتدة حتى داخل رأس لوكياس ، وأهم آثاره دار العلم ، والمكتبة ، ودار العدل ، والجمنازيوم ، والبانيوم ، والسيما . أما الحى اليهودى أو حى الدلتا ، فكان يقع خلف الميناء الشرقى الكبير فى الجوف ، عند بداية الطريق الكانوبى وإلى الجنوب الشرقى من الحى الملكى . أما الحى الوطنى فيقع إلى الجنوب الغربى من المدينة فى الموضع الذى كانت تشغله قرية راكوتيس القديمة ، وهو حى الأهالى والعمال ، وكان يقوم فيه معبد السرابيوم الذى أقامه بطليموس لعبادة سرابيس ، وألحقت به مكتبة صغيرة ومعبد خصص للإله أنوبيس كما أقيم فيه ميدان للألعاب يعرف باسم ستاديوم (١) .

وكانت المقابر تقع فى ظاهر المدينة ، فى شرقها وغربها ، وكان اليونان والأجانب يدفنون بالمقابر الشرقية فى العصر البطلمى ، أما المقابر الغربية فكان يدفن بها المصريون وعدد قليل من اليونان ، وأغلب المقابر البطلمية كانت فى جوف الأرض ، وتتألف عادة من ممرات وغرف وجوفات منحوتة فى الصخر فى تخطيط معقد كما هو الحال فى مقابر كوم الشقافة والشاطبى (٢) .

وفيما يلى أهم المؤسسات والمنشآت العامة التى أقامها البطالمة فى الاسكندرية وكانت سبب عظمتها وشهرتها : —

---

(١) Breccia, op. cit. p. 104.

(٢) كانت مقبرة كوم الشقافة تعرف باسم نكروبوليس Breccia, op. cit. pp. 82-83



(شكل ٢) جانب من البرج الرومانى بسور الاسكندرية جهة الشلالات

أولا - المنار :

كان لابد لبطليموس سوتر أن يعنى بميناء الاسكندرية حتى تتحقق له السيادة البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وقد رأينا أنه بنى الرصيف الحجرى الذى يقسم ميناء الاسكندرية إلى ميناءين ، ويصل فى نفس الوقت بين المدينة نفسها وبين جزيرة فاروس الواقعة أمامها . ولما كان يتعذر على السفن التجارية والحربية الدخول فى الفراغ الضيق الواقع بين الطرف الشمالى الشرقى لجزيرة فاروس والطرف الشمالى الغربى من الشريط الصخرى المتصل برأس لوكياس ، فقد رأى بطليموس أن ينشىء عند مدخل هذا الميناء منارا ضخما لهداية السفن عن طريق إشعال النار فى قمته . وعهد بطليموس باقامة هذا المنار فى الموضع المذكور من جزيرة فاروس إلى المهندس سوستراتوس دى كيندوس ابن ديكسيفانس الذى شرع فى تأسيسها فى أواخر أيام سوتر ، وأتم بناءها فى أوائل عهد بطليموس فيلادلفوس (٢٨٠ — ٢٧٩ ق.م.) وجاء بناؤه أعجوبة من أعاجيب الدنيا السبعة (١) . ولقد ضاعت معالم هذا المنار الذى ذاعت شهرته فى الآفاق ولم يتبق منه إلا أساسه الذى أقيمت عليه قلعة قايتباى سنة ٨٨٢ هـ . فلقد تهدم طابقه العلوى فى القرن الثانى الهجرى سنة (١٨٠ هـ) بسبب الزلازل ، وظل المنار كذلك حتى قام أحمد بن طولون بترميمه فجعل فى أعلاه قبة من الخشب لم تلبث أن تهدمت بفعل الرياح (٢) . وفى عهد الظاهر بيبرس قام ببناء ما تهدم من المنار أثناء زيارته للاسكندرية سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٢ م) ، وأنشأ فى أعلى المنار مسجدا فى الموضع الذى كانت تشغله قبة ابن طولون . إلا أن هذا

---

(١) المرجع السابق ص ١٠٨ . يذكر المقريزى فى الخطط أنه كان « فى المنارة قوم مرتبون لوقود النار طول الليل فيقصد ركاب السفن تلك النار على بعد ، فاذا رأى أهل المنار ما يريبهم أشعلوا النار من جهة المدينة ، فاذا رآها الحرس ضربوا الأبواق والأجراس فيتحرك عند ذلك الناس لمحاربة العدو » المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٧ .

المسجد لم يلبث أن تعرض بدوره للهدم عقب زلزال سنة ٧٠٢ هـ. (١٣٠٢ م) فرممه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير فى سنة ٧٠٣ هـ . وعبثت يد الإهمال بهذا الأثر الجليل فلم يحاول سلاطين المماليك بعد بيبرس تعميره أو ترميمه وتهدم جانب منه ، ويرجح تهدم المنار كله فيما بين عامى ١٣٢٦ ، ١٣٤٩ (١) فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فلقد شاهده الرحالة ابن بطوطة مرتين : مرة فى رحلته الأولى إلى مصر سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م) وكان أحد جوانبه مهدما ، ومرة فى رحلته الثانية سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) فوصفه قائلا : " . . . فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه ، وكان الملك الناصر — رحمه الله — شرع فى بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن إتمامه " (٢) . فلما كانت أيام الأشرف قايتباى أمر بأن يبنى على أنقاض منار الاسكندرية برجا جديدا سمى ببرج قايتباى ، فتم البناء فى عامين . ولقد وصلتنا أوصاف عديدة لهذا المنار فى العصور الوسطى (٣) ، وقد استخدم بتلر Butler بعض هذه الأوصاف فى تصوير منار الاسكندرية وتخيله كما كان قبل دثوره ، ومنه نستنتج أن المنار كان يتألف من " قاعدة مربعة الشكل ثم تصير بعد ذلك مثمنة الاضلاع وتدق فى حجمها ، ثم تدق بعد ذلك ، ويستدير شكلها ثم

= Omar Tousoun, Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur ärabe du XIIe siècle, dans B. S. R. A. fasc 30, 1936, pp. 49-53.

(١) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ص ٤٠ .

(٣) أرجع إلى : ابن حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض تحقيق كرامرز ، ليدن ١٩٣٢ ص ١٥١ ، ابن رسته : الأعلاق النفيسة المجلد السابع ليدن ١٨٩١ ، اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٣٣٨ ، ابن جبير: رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ليدن ١٩٠٧ ص ٤١ — رحلة بنيا مين التطيلى Viajé de Benjamin de Tudela مدريد سنة ١٩١٨ ص ١١٣ — ١١٥ ، المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٥ ، ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ج ٥ من المكتبة الجغرافية ، ليدن ١٨٨٥ ص ٨٢ .



(شكل ٣) منار الاسكندرية وفقا لوصف المؤرخين

يعلوها عند القمة مصباح » (١) ثم تبعه تيرش Thiersch الذى استخدم اوصف المنار كل ما أمكنه العثور عليه من مصادر تاريخية يونانية ولاتينية وعربية كما استعان بنقوش من العملات ورسوم الفسيفساء بسور سان ماركو بالبندقية ، وتتلخص كل دراسته لهذا الموضوع فى رسم أظهر فيه المنار كبرج حجرى ارتفاعه ١٢٤ مترا ، يتألف من طابق أدنى مربع الشكل ، يعلوه جسم مثمن الشكل ارتفاعه نحو ٣٠ مترا وينتهى بشرفة ثم يعلوه جسم أسطوانى الشكل ارتفاعه ١٥ مترا ، ويتألف من جوسق يقوم على ثمانية أعمدة تعلوها قبة داخلها مرايا محدبة الشكل وظيفتها عكس لهيب النيران فى أعلى المنار لهداية السفن . ويعلو القبة تمثال ضخم من البرونز ارتفاعه سبعة أمتار يمثل إله البحر بوسيديون (٢)

ثانيا – دار الحكمة والمكتبة :

عهد بطليموس سوتر إلى الخطيب الأثينى ديمتريوس فاليريوس Demetrius Phalerius بتأسيس دار الحكمة (ميوزيوم) والمكتبة فى الحى الملكى بالاسكندرية ، لتؤدى وظيفة الجامعة العلمية التى يتوافد إليها العلماء والمفكرون من كافة أنحاء العالم الهلينستى ، حتى تنافس أثينا مركز الثقافة الهلينية ، وأقام بهذه الدار عدد من العلماء الذين برزوا فى الجغرافية والفلك والعلوم والرياضة والطب والتاريخ والأدب والفلسفة ، وكانت الدولة تمنحهم مرتبات ضخمة لتشجيعهم على أعمال البحث والتنقيب (٣) . فنبغ اراتوستينس Eratosthenes فى

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٣٣ ص ٣٤٥ .

(٢) Breccia, Alexandria Ad Ægyptum, p. 108, 109

عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية نظرة عامة عن تطورها ص ٧ .

دائرة معارف الشعب عدد ٨٥ ص ٣٢٨ .

فؤاد فرج ، الاسكندرية ص ٢٠ — جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها ص ١٩٨ .

(٣) زكى على ، الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ص ٥٤ .

الجغرافيا (أول من قاس قطر الأرض) واريستاركوس Aris archus فى الفلك (أول من اكتشف المجموعة الشمسية) واقليدس فى الهندسة (كتب كتابه المسمى العناصر والأصول فى الرياضيات) الذى تتلمذ عليه ارشميدس، كما نبغ تيوفراستوس فى علم النبات ، وأراسيستراتوس فى الجراحة، وهيروفيلوس فى الطب والتشريح وكاليماكوس Callimachus وتيوكرتيس وأبولونيوس الرودى فى الشعر ، وازدهرت العلوم الفلسفية والأدبية فى أواخر أيام البطالمة (١) . أما المكتبة فكانت تضم عددا هائلا من الكتب العلمية والأدبية ،فقيل أنها بلغت فى أيام بطليموس فيلادلفوس نحو أربعمائة ألف مجلد ، هذا باستثناء ما كان موجودا فى القصور الملكية وفى المكتبة البنت التى كانت تعتبر فرعا من المكتبة الكبرى . وارتفع عدد هذه الكتب إلى ما يقرب من الضعف (٧٠٠ ألف) فى آخر أيام كليوباترة . وهكذا كانت مكتبة الاسكندرية أعظم مكتبات العالم . ويبدو أن ذلك لايعدو أن يكون اتجاها سلكه البطالمة نحو الدعاية السياسية عن طريق تركيز الأضواء على عاصمتهم كمركز للثقافة العالمية والعلوم ، فزودوا مكتبة الإسكندرية بالنسخ الأصلية من الرسائل التى وجدت فى عصرهم وتوسل بعضهم بطرق ملتوية لشراء الكتب (٢) .

ولقد ظلت دار الحكمة ومكتبة الاسكندرية تحملان مشعل الحضارة السكندرية حتى احترقت المكتبة عام ٤٨ ق.م. عندما أشعل يوليوس قيصر النيران فى سفن المصريين فامتدت ألسنتها إلى الأرصفة القريبة وأحرقت المخازن الجمركية واتصلت بعدها بمخازن الكتب التابعة للمكتبة (٣) فى الحى الملكى . ثم قضى الاضطراب السياسى والدينى فى الاسكندرية فى عصر

(١) لطفى عبد الوهاب ، مقدمة فى حضارة الاسكندرية ص ٢٥ ، ابراهيم جمعة جامعة الاسكندرية ص ٣٤ — ٧٦ ، ١٩٤٢ ، ١٩٥ .

(٢) لطفى عبد الوهاب ، ص ٢٦ .

(٣) كانت المكتبة تقع بين الملعب ورأس لوكياس .

انتشار المسيحية على العدد الأعظم مما تبقى من هذه الكتب . ومع ذلك فقد ظلت بقايا دار الحكمة فى العصر الاسلامى، فوصفها الرحالة المسلمون وغيرهم (١) وسماها بنيامين التطيلى باسم أكاديمية أرسطو ، أستاذ الاسكندرية (٢) .

ثالثا – المعابد :

أقام بطليموس معبد السرابيوم لعبادة سرابيس ، شيد فوق مرتفع من الأرض فى غرب المدينة على مقربة من الحى الوطنى ، وكان يؤدى إليه درج مؤلف من مائة درجة ، كما كان يضم أروقة تطل بواسطة بوائك على أفنية . وأضيف إلى هذا المعبد فى عهد بطليموس فيلادلفوس (٣) . وفى عصر دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) أقام بوستيموس، حاكم الاسكندرية، فى معبد السرابيوم عمودا ضخما من الجرانيت تكريما لزيارة الامبراطور للاسكندرية ، وقد عرف هذا العمود باسم عمود السوارى ، ويبلغ ارتفاعه بما فى ذلك قاعدته ورأسه نحو ٢٦,٨٥ مترا، قطره من أسفل ٢,٧٠ م ، وقطره من أعلى ٢,٣٠ م ،وقد أعجب به كل من زار الاسكندرية من الرحالة المسلمين ووصفوه وصفا رائعا (٤) .

ولقد تعرض هذا المعبد للهدم سنة ٣٩١ م ،حين أمر بهدمه البطريرك ثاوفيلوس ، وكسر تمثال سرابيس (٥) وأقام على أنقاضه كنيسة يوحنا المعمدان .

---

(١) أنظر كتاب الأعلاق النفيسة ص ١١٨ (. . . فتدخل باب الشرق من الاسكندرية فهنالك قبة خضراء على ستة عشر عمودا من رخام وهى وسط المدينة بناها الاسكندر . . .)

(٢) Viaje de Benjamin de Tudela, p. 113.

(٣) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها . . . ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٤) ابن رسته ص ١١٧ ، ياقوت الحموى المجلد الأول ص ٢٦٢ ، ابن حوقل ص ١٥٠ ابن جبير ص ٤١ ، القريزى : الخطط ج ١ ص ١٥٩ — ١٦١ .

(٥) Breccia, op. cit. p. 113

كذلك أقامت كليوباترة معبد القيصريوم احتفالا بقدوم أنطونيوس ، ويمكن تحديد موقع هذا المعبد اليوم فى الموضع الذى تقوم عليه الكنيسة المرقسية وكنيس اليهود ، ونصبت كليوباترة أمام المعبد مسلتين نقلتهما من معبد عين شمس ، وكانتا تحملان شعار تحتمس وسيتى الثانى ، وهما المسلتان اللتان نقلتا إلى لندن ونيويورك . ولقد تحول هذا المعبد إلى كنيسة عام ٣٥٤ م، ثم أحرق عام ٩١٢ م .

رابعا – السوما أو ضريح الاسكندر :

يذكر استرابون أن بطليموس سوتر نقل جثة الاسكندر من منف إلى الاسكندرية ،ووضعها داخل تابوت من الذهب الخالص ، غير أن رفات الاسكندر لم تلبث أن نقلت إلى تابوت من الرخام الشفاف ، بعد أن استولى بطليموس الحادى عشر على التابوت الذهبى (٨٠ ق.م. — ٥٨ ق .م . (١) .

ويبدو أن ضريح الاسكندر كان مقاما فى قلب المدينة فى شارع السيما ، ويرى جمهور من رجال الآثار احتمال وقوعه بجوار الكنيسة المرقسية بينما يرجح عدد آخر أنه مطمور تحت جامع النبى دانيال . وأقام البطالمة مقبرتهم حول قبر الاسكندر فى تل البانيوم (كوم الدكة) ، وذكر استرابون أن هذه المنطقة كانت تلا صخريا يمكن الوصول إلى أعلاه عن طريق أحدور لولبى (٢) ، ويشرف هذا التل على المدينة كلها .

* * *

ثم أصبحت مصر ولاية تابعة للدولة الرومانية منذ انتصر أغسطس قيصر على كليوباترة فى موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق.م. ،وأقام الرومان حامية رومانية فى معسكر كبير شرقى المدينة ، فى ضاحية نيكوبوليس ، وفقدت الاسكندرية كثيرا من عظمتها السياسية فى العصر الرومانى لأنها أصبحت

---

(١) زكى على ، الاسكندرية ، تأسيسها ص ١٦٤ — Breccia, op. cit. p. 98

(٢) زكى على ، الاسكندرية تأسيسها . . . ص ١٦٧ .

تابعة لروما التى فرضت سيادتها على العالم الرومانى بقوة ساعدها ، ومع ذلك فقد كان الرومان ينظرون إلى مصر نظرة خاصة ، فعندما قسمت الولايات الرومانية عام ٢٧ ق.م. ، إلى ولايات تابعة للسناتو ، وأخرى تابعة للامبراطور ، كانت مصر فى عداد الولايات الأخيرة ، وكان لها مركز رفيع بين هذه الولايات إذ أقيم عليها حاكم رفيع الرتبة يدعى Praefectus (١) .
ولعبت الاسكندرية دورا هاما فى التاريخ الرومانى ، فلقد عمل الأباطرة الرومان إلى إخضاعها لأن فى ذلك ضمان لخضوع مصر كلها ، وتوسلوا فى سبيل ذلك بالتفريق بين الإغريق واليهود فى الاسكندرية ، وانتزاع السلطات النيابية من أيدى الإغريق السكندريين ، وهنا اشتد العداء بين الفريقين على الأخص فى عهد كاليجولا Caligula (٣٧— ٤١ م) (٢) وطالب الإغريق فى عهد كلوديوس Claudius (٤١ — ٤٥ م) بحقوقهم المدنية ، غير أن الإمبراطور رفض منح الاسكندرية مجلسا للسناتو (٣) ، واشتد النزاع بين اليهود والإغريق فى عهد نيرون (٥٤ — ٦٨ م) ، وقاموا فى أيام الإمبراطور تراجان بثورات عديدة ووثبوا على الإغريق وأعملوا فيهم القتل ، وقد أدت هذه الفتنة إلى تخريب كثير من المنشآت المعمارية فى المدينة ، فتهدم الحى اليهودى والكنيس الأكبر ، وأحرق اليهود معبدا لليونان ، ودمروا بعض الأبنية (٤) . وأخمدت الثورة فى عهد الامبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) الذى قدم إلى مصر مرتين ، جدد فى المرة الأولى ما تخرب من أبنية المدينة واهتم خاصة بمعبد السرابيوم ، وأقام فيه مدرسة على غرار الميوزيوم أو دار الحكمة ، وكانت لزيارته الثانية سنة ١٣٠ أثر طيب فى تهدئة الأحوال .

---

(١) ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة والرومان (مقال فى المجمل فى التاريخ المصرى ص ٩٦) .
(٢) زكى على : الاسكندرية فى العصر الرومانى ، مجلة الغرفة التجارية ص ٧٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٥ .
(٤) نفس المرجع ص ٧٥ .

ولما قدم الامبراطور سبتميوس سفروس (١٩٣ — ٢١١ م) إلى الاسكندرية ، منحها مجلسا للسناتو ، كذلك منح خليفته كراكلا (٢١١ — ٢١٧ م) الإغريق الحقوق المدنية الرومانية .

وكان الدين المسيحى قد بدأ ينتشر فى مصر لقربها من فلسطين مهد المسيحية وذلك منذ النصف الثانى من القرن الأول، وازداد هذا الانتشار بوجه خاص فى الاسكندرية إبان القرن الثانى للميلاد ، وأصبح لها كنيسة فى هذه المدينة بينما كانت المسيحية تنتشر فى الأقطار الأخرى فى بطء شديد، واعتنقها الناس خفية فى هذه الأقطار . ويفسر الدكتور عزيز سوريال هذا الانتشار السريع فى مصر دون غيرها باستعداد العقلية المصرية لتقبلها منذ أن أعلن إخناتون الوحدانية المطلقة (١) .

وأثار انتشار المسيحية مخاوف الرومان ، فعمدوا إلى إضطهاد دعاتها ومعتنقيها منذ النصف الثانى من القرن الثانى الميلادى ، وعلى الأخص فى عهد سبتميوس سفروس . وبلغ هذا الاضطهاد ذروته فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) إلى حد أن الكنيسة القبطية بدأت تقويمها المعروف بتقويم الشهداء منذ اعتلى دقلديانوس عرش الامبراطورية الرومانية سنة ٢٨٤م (٢) . وفى عهده اشتعلت نيران الثورة فى الاسكندرية، فحاصرها مدة ثمانية أشهر حتى سقطت ، فخرب كثيرا من أبنيتها . وأتت بعد ذلك فترة ازداد فيها اضطهاد الأباطرة لكنيسة الاسكندرية ، إلا أن هذا الاضطهاد لم يثن المصريين عن اعتناق الدين المسيحى فانتشر إنتشارا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، وكان اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول ٣٢٣ — ٣٣٧ م

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، مقال فى مجلة الغرفة التجارية بالاسكندرية ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٢) نفس المرجع ص ٨٠ — السيد عبد العزيز سالم : الاسكندرية ، دائرة معارف الشعب ، حاشية رقم ١ ، ص ٣٢٨ .

بهذا الدين رسميا كدين من أديان الدولة البيزنطية انتصارا حاسما للمسيحية ، ومالبث الامبراطور تيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أن اعتنق المسيحية وفرضها قسرا على رعايا الامبراطورية ، وفى عهده قام البطريرك ثاوفيلوس بهدم المعابد الوثنية فى الاسكندرية وتدميرها .وفى سنة٣٨٩هـ تهدم معبد سرابيس ، بقرب كانوب ، شرقى الاسكندرية (١) .

وأقيمت فى هذا العصر عدة كنائس ، منها كنيسة القديس مرقس البشير على شاطىء الميناء الشرقية ، بالقرب من رأس لوكياس ، وكنيسة القديس أثناسيوس التى أسست سنة ٣٧٠ فى نفس الموضع الذى أقيم عليه جامع العطارين فيما بعد ، إذ جاء فى كتاب وصف مصر Description de l'Egypte ذكر هذا الجامع باسم جامع كنيسة القديس أثناسيوس . كذلك أقيمت كنيسة العذراء مريم على يدى البطريرك ثيوثاس (٢٨٢ - ٣٠٠ م) على شاطىء الميناء الغربى ، وتحولت هذه الكنيسة بعد الفتح الاسلامى إلى مسجد جامع سمى بالجامع الغربى نظراً لقربه من الميناء ، أو جامع الألف عمود الذى تهدم فيما بعد (٢) .

وكان لانتصار المسيحية الأرثوذكسية السكندرية على الوثنية أثر كبير فى ارتفاع مكانة هذه المدينة من الوجهة الروحية ، ولم تقبل بيزنطة هذا الوضع ، وهنا نشأ نزاع مذهبى كبير بين بيزنطة والاسكندرية من أجل الزعامة الدينية ، ويستتر هذا النزاع السياسى وراء الجدل المذهبى حول طبيعة المسيح وإرادته الواحدة أو الثنائية . وينقسم المسيحيون إلى طائفتين : أتباع

---

(١) عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، ص ٨١ ، ويذكر الأستاذ الدكتور عزيز سوريال أن الرهبان بقيادة أثناسيوس استولوا على معبد القيصريوم ٣٥٤ وحولوه إلى الكنيسة المرقسية .

(٢) نفس المرجع ص ٨٣ - جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ص ٢٠٣ ، فؤاد فرج ص ٣٨ ، ٣٩ .

مذهب الوحدانية البحتة ، ويسمون بالمونوفيزيت أبو اليعاقبة ، وكان هؤلاء يتبعون كنيسة الاسكندرية ، ثم أصحاب مذهب الطبيعتين ويسمون بالدوفيزيت أو الملكانيين ، وكانوا يتبعون كنيسة بيزنطة . واحتدم النزاع بين الفريقين ، وتدخل الأباطرة فى هذا النزاع ، وعقد الامبراطور مارسيان مجمعا دينيا فى خلقدونية عام ٤٥١ أقر فيه مذهب الملكانيين ، وقرر أن مذهب الوحدانية كفر والحاد وخروج عن الدين الصحيح ، وقرر طرد ديسقورس بطريرك الاسكندرية من الكنيسة ونفيه . ولم يقبل المصريون هذه القرارات ، وأعلنوا عصيانهم لها ، وتحول النزاع إلى تحد مجيد من جانب المصريين ، وتسمى هؤلاء بالأرثوذكسيين أى أصحاب الدين الصحيح . وأمعن الأباطرة فى سياستهم التعسفية ، فانتقل مركز الحركة الأرثوذكسية إلى خارج الاسكندرية ، وكان من أكبر زعمائها الأنبا شنودة والبطريرك بنيامين . ولقد كان لإسراف البيزنطيين فى اضطهاد المصريين أثر كبير فى معاداة المصريين لهم وفى تمهيد السبيل لفتح العرب لمصر .

الفصل الثانى

الاسكندرية منذ فتح العرب لمصر
حتى العصر الفاطمى

الفصل الثانى

الاسكندريه منذ فتح العرب لمصر
حتى العصر الفاطمى

لما افتتح عمرو بن العاص حصن بابليون سنة ١٩ هـ ، انفتح أمامه الطريق إلى الاسكندرية، عاصمة الديار المصرية . فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأمره فى الزحف إلى الإسكندرية، وسار إليها فى ربيع الأول سنة ٢٠ هـ . بعد أن استخلف على حصن بابليون خارجة بن حذافة بن غانم (١) واشتبك عمرو مع الروم فى نقيوس، ثم فى سلطيس، وانهزم الروم فى كل من هاتين القريتين . ثم التقى عمرو بالروم فى الكريون، وكانت أهم معقل بيزنطى أمام الإسكندرية، وهناك قامت معركة حامية استمرت عدة أيام، وانتهت بانتصار عمرو على تيودور انتصارا حاسما تراجع الروم على أثره بعد أن قتل منهم عدد كبير (٢) . وتحصن الروم فى الاسكندرية، وكان عليها أسوار محكمة البناء . وأدرك عمرو استحالة استيلائه على الاسكندرية لمناعتها فآثر أن يترك عليها فرقة للرباط ويسير هو على رأس جيشه لفتح بقية الوجه البحرى .

وذكر الكندى أن عمرو حاصرها مدة ثلاثة أشهر ، ثم فتحها عنوة، وأن هذا هو الفتح الأول، وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص أقام على حصار الاسكندرية عدة أشهر ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال : ما أبطأ بفتحها

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٢٧ .

(٢) السيوطى حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢ ، محمود عكوش : مصر فى عهد الاسلام ص ١٢٩ .

إلا لما أحدثوا (١) . وذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص فتح الاسكندرية عام ٢٠ هـ ،وخلف بها ألف رجل من أصحابه " ومضى ومن معه فى طلب من هرب من الروم فى البحر ، فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الاسكندرية،فقتلوا من كان فيها من المسلمين إلا من هرب منهم ، وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعا،ففتحها وأقام بها (٢) " . وذكر المقريزى آن عمرو ضرب الحصار على الاسكندرية مدة ١٤ شهرا،منها تسعة أشهر بعد موت، هرقل،وخمسة قبل ذلك،وأن فتحها تم فى أول محرم سنة ٢١ هـ(٣).

وساعد على فتح العرب للاسكندرية موت الامبراطور هرقل،وضعف الحكومة البيزنطية بعد وفاته فى ٢٣ صفر سنة ٢٠ هـ (١١ فبراير سنة ٦٤١ م)،وقيام المنازعات فى القسطنطينية من أجل العرش،مما اضطر الروم إلى العمل على إنهاء الحرب وذلك بعقد صلح مع المسلمين حتى يتفرغوا لمشاكلهم الداخلية . ونقل لين بول ما ذكره حنا النقيوسى إذ يقول : " إن البطريرك قيرس الذى عاد من القسطنطينية وبيده تفويض من الامبراطور يخوله عقد الصلح مع عمرو ، ذهب إلى عمرو فى بابليون ليفاوضه فى الصلح . وقد تم الاتفاق بينهما على أن يدفع أهل الاسكندرية للعرب جزية شهرية،وأن يقدموا لعمرو ١٥٠ جنديا و ٥٠ مدنيا بمثابة رهائن،وأن يتعهد المسلمون بعدم التدخل فى شئون المسيحيين وكنائسهم،والسماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية، وأن يبقى المسلمون مدة ١١ شهرا خارج المدينة حتى يبحر عنها الروم . ووقعت المعاهدة بين الطرفين فى طليعة نوفمبر سنة ٦٤١ ، وتم إبحار الروم فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م " (١) .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر : طبعة ليدن ص ٧٨ .

(٢) السيوطى ج ١ ص ٥٢ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٥

(٤) Lane-Poole, A history of Egypt in the middle ages, p. 11

وكتب عمرو إلى عمر بعد ذلك يقول : " أما بعد فانى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر " (١) . وذكروا أنه كان بها من الحمامات إثنى عشر ديماسا ، أصغر ديماس منها يسع ألف مجلس ، وكل مجلس منها يسع جماعة نفر . وروى عثمان بن صالح عن ابن لهيعة أن " عمرو بن العاص بعث معاوية بن حديج وافدا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشيرا له بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معى كتابا . قال عمرو وما تصنع بالكتاب ألست رجلا عربيا تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت . فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الاسكندرية خر عمر ساجدا (١) وقال : الحمد لله .

ولما تم لعمرو بن العاص فتح الاسكندرية فكر فى اتخاذها حاضرة لمصر الاسلامية ، وذلك لما شاهده من حسن عمارتها ، وروعة تخطيطها ، وكثرة دورها التى تركها أصحابها عندما جلوا عن الاسكندرية إلى بلاد الروم ، فاستولى عليها الفاتحون العرب ، وصارت لهم أخائذ تغنيهم عن بناء دور جديدة . ويذكر المؤرخون العرب ، أن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى ذلك وكتب إليه قائلا : " مساكن قد كفيناها " (٣) . ولا شك أن تفكير عمرو فى اختيار الاسكندرية عاصمة له فى مصر كان أمرا طبيعيا فى الوقت الذى لم يكن العرب فيه على استعداد لتأسيس مدينة جديدة ، ثم أن الاسكندرية

---

(١) القريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٦ ، السيوطى ج ١ ص ٥٤ ، ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الأنصار ، ج ٥ ص ١٢٥ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٣ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٨ .

(٣) السيوطى ج ١ ص ٥٧ .

كانت تعتبر المدينة الأولى فى مصر منذ أسسها الاسكندر حتى افتتحها العرب ، وكانت من الوجهة العمرانية والمعمارية مدينة حصينة عامرة بالأسواق ، كثيرة الخيرات ، بهرت الفاتحين العرب بآثارها العظيمة (كالمنارة وعمود السوارى والمعابد والقصور والصهاريج والحمامات) ، وبتخطيطها الرائع ، يضاف إلى هذا موقعها الجغرافى والاستراتيجى الهام الذى هيأ لها أن تتوسط طرق التجارة بين الشرق والغرب . كل هذه المميزات كانت كفيلة باختيارها عاصمة لمصر الاسلامية ، ولكن المقريزى يذكر نصا رواه ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو أرسل يستشير عمر بن الخطاب فى اختياره للاسكندرية . فسأل عمر رسول عمرو إليه سؤاله المعروف : " هل يحول بينى وبين المسلمين ماء " فلما أجابه الرسول بالإيجاب كتب إلى عمرو يأمره باختيار مكان آخر لايفصله عنه ماء فى شتاء ولا صيف ، وأنه كتب كذلك إلى سعد بن أبى وقاص فى مدائن كسرى ، وإلى عامله بالبصرة ، ألا يجعلوا بينه وبينهم ماء متى أراد أن يركب راحلته اليهم حتى يقدم عليهم فعل . فعدل سعد عن اتخاذ المدائن حاضرة للمسلمين ، وانتقل منها إلى الكوفة على الجانب الغربى من الفرات ، وتحول صاحب البصرة من الموضع الذى نزل فيه إلى البصرة ، حيث تلتقى بها الطرق الآتية من نجد والشام وإيران ، وتحول عمرو بن العاص من الاسكندرية إلى الفسطاط (١) .

والواقع أن عدول عمر عن اختيار الاسكندرية كان منطقيا إلى حد بعيد ، فالاسكندرية ميناء بحرى لابد أن يتخذه قاعدة له من التفوق فى

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٨٦ — السيوطى ج ١ ص ٥٧ — عبد الرحمن زكى : عواصم مصر الاسلامية من كتاب « فى مصر الاسلامية » القاهرة ١٩٣٧ ص ٩٩ ، ١٠٠ — جمال الشيال : الفسطاط كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد ١٢ سنة ١٩٥٨ ص ١٣٤ .

الشؤون البحرية . وكان البطالمة والرومان عارفون بأمور البحر ، ملمون بأصول الملاحة ، وكانت لهم الأساطيل البحرية ، لذلك اتخذوا الاسكندرية عاصمة لهم . أما العرب فكانوا أبعد العالم إلماما بالشؤون البحرية باعتبارهم بدوا يعيشون فى الصحراء ولا يحاربون إلا برا ، وفى ذلك يقول ابن خلدون : " والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته (البحر) وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته " (١) .

كما أن الاسكندرية بوقوعها على البحر ، وباحاطتها بالبسائط من الشرق والغرب ، كانت سهلة المنال على العدو . وفى ذلك يقول ابن خلدون أيضا : " ومما يراعى فى البلاد الساحلية التى على البحر أن تكون فى جبل ، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد ، تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو ، والسبب فى ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات ولا موضعها متوعر من الجبل ، كانت فى غرة للبيات ، وسهل طروقها فى الأساطيل البحرية على عدوها ، وتحيفه لها لما يأمن من وجود الصريخ لها ، . . . وهذه كالاسكندرية من المشرق ، وطرابلس من المغرب ، وبونة وسلا . ومتى كانت القبائل والعصائب متوطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنفير ، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها فى هضاب الجبال وعلى أسنمتها ، كان لها بذلك منعة من العدو ، ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها ، وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما فى سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها " (٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٨ : يذكر ابن خلدون أيضا أن عمر طلب من عمرو بن العاص بعد فتح مصر أن يصف له البحر فقال : إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف دود على دود . فأوعز عمر حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه (أنظر المقدمة ص ٢٧٧) .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٥ .

لذلك لم تكن الاسكندر عند عمر بن الخطاب جديرة بالاختيار كعاصمة لمصر الاسلامية . ويذكر المقريزى أن عمر بن الخطاب كان يحرص على تحصين الاسكندرية وعلى الدفاع عنها " فكان يبعث فى كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالاسكندرية . وكان على الولاء لا يغفلها ويكنف مرابطها ولا يأمن الروم عليها " (١) .

وهكذا أصبح من الضرورى أن يبحث عمرو بن العاص عن عاصمة أخرى لمصر الاسلامية،فى موضع حصين قريب من بلاد الشام،تسهل منه الإتصالات البرية مع بقية الأقاليم الاسلامية،حتى يسهل الدفاع عنها،وتأتيها النجدات حين تتحرج الأمور ، ووقع اختياره أخيرا على الفسطاط ، وكانت تتوفر فيها كل هذه الصفات .

وهكذا كان رأى عمر بن الخطاب بخصوص الماء الذى يفصل بينه وبين المسلمين منطقيا يدل على بعد نظره وحسن بصيرته ،لأن الإسكندرية أصبحت بوقوعها على البحر مدينة مهددة بالغزو من البحر ، وليس أدل على ذلك من محاولة الروم افتتاحها بحرا فى أوائل عام ٢٥ هـ (أواخر عام ٦٤٥ م) ولما يمض على فتحها أربع سنوات . ذلك أن الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى Constans II هاله ما رآه من فتوحات العرب فى الشام ومصر وبرقة ، فأراد أن يسترد مصر والشام من المسلمين معتمدا على قوته البحرية (٢) ، وانتهز فرصة جهل العرب بأمور البحر وافتقارهم إلى الأساطيل وعمد إلى مفاجأتهم فى الاسكندرية واحتلالها ، لتكون قاعدة بيزنطية لإخراج العرب من مصر (٣) . وأراد قنسطانز أن يشغل المسلمين

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) ابراهيم أحمد العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم القاهرة ١٩٥٨ ص ٦١ .

(٣) ابراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ،القاهرة ١٩٥٧ ص ٥ .

فى الشام عن الدفاع عن الاسكندرية ، فأرسل حملة أخرى للإغارة على شواطىء الشام فى نفس الوقت الذى أغار فيه على الاسكندرية ، ولكن هذه الحملة على الشام لم يكتب لها النجاح ، إذ تصدى لهم جيش معاوية والى الشام وهزمهم هزيمة نكراء . وأعد قنسطانز سفنه وأساطيله ، وقيل أنه أرسل إلى الإسكندرية ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة (١) ، وجعل على رأس هذه الحملة قائده مانويل الذى يسميه مؤرخو العرب منويل الخصى . وكان والى مصر إذ ذاك عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى خلافة عثمان بن عفان . ولما أرسى أسطول الروم بالاسكندرية، انتقض سكان الاسكندرية من الروم على المسلمين،وانضموا إلى بنى جنسهم ، وفوجىء المسلمون بنزول الروم فى الاسكندرية فأسلمت المدينة للروم بدون مقاومة ، وزحفت جيوش الروم بعد ذلك إلى الجنوب الشرقى متجهة إلى الفسطاط ، فطلب أهل مصر من عثمان أن يقر عمرو بن العاص على قيادة جيش المسلمين لقتال الروم " فإن له معرفة بالحرب وهيبة فى قلب العدو "(٢) . وترك عمرو أعداءه يتقدمون فى البلاد، ينزلون القرى فيشربون خمورها،ويأكلون أطعمتها،وينهبون ما مروا به ، وبذلك اكتسبوا عداء الأهالى من القبط ، فلما بلغوا نقيوس صدمهم المسلمون صدمة عنيفة، واشتبكوا معهم فى قتال شديد ، وحمل مانويل على جيش عمرو ورماه بالنشاب ،وانهزم شريك بن سمى فى خيله (٣) . وما زال عمرو يقاتلهم حتى هزمهم ، فتراجعوا إلى الاسكندرية ، وتحصنوا بها ، ونصبوا المجانيق والعرادات على أسوارها ، فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب المجانيق فأخذت جدرها (٤) ، ولكن

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٢٩ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ — السيوطى ج ١ ص ٧٠ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ — السيوطى ج ١ ص ٧٠ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٨ .

(٤) البلاذرى ص ٢٢٩ .

الروم قذفوا عمرا وجيشه بالحجارة ، وقاسى العرب كثيرا أثناء حصارهم للمدينة ، وندم عمرو على تركه أسوار الاسكندرية سليمة بعد أن افتتحها سنة ٢١ هـ ، فأقسم لئن استولى على المدينة هذه المرة ليهدمن الأسوار ، ويجعل الاسكندرية " كبيت الزانية يؤتى من كل مكان " (١) . ولا شك أن عمرا لقى فى اقتحام المدينة صعوبات جمة ، ولم يتمكن من دخولها إلا بعد عناء شديد ، فأعمل السيف فى حامية الروم ، وقتل القائد البيزنطى مانويل وعددا كبيرا من رجاله ، وقيل إنه أمر برفع السيف عن الباقين ، وبنى فى ذلك الموضع الذى رفع فيه السيف مسجدا سماه مسجد الرحمة ، وهدم سور المدينة كله (٢) . ونجح العرب فى إحراق عدد كبير من سفن الروم . وهكذا استطاع عمرو أن يقضى على حملة الروم البحرية .

وكادت الاسكندرية تتعرض ٣٤ هـ مرة ثانية لغزو الروم ، فان الإمبراطور قنسطانز الثانى لم ينس هزيمة جيوشه فى الاسكندرية سنة ٢٥ هـ ، ثم إن العرب كانوا قد اصطنعوا فى خلال هذه السنوات العشرة سياسة بحرية ، إذ دفعتهم إلى ذلك الأخطار التى تعرضت لها ثغورهم فى مصر والشام . وفى ذلك يقول ابن خلدون : " فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية فى حاجاتهم البحرية أمما ، وتكررت ممارستهم وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشرهوا إلى الجهاد فيه ، وأنشئوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح... "(٣)

(١) القريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٧ — السيوطى ص ٧٠ .

(٢) القريزى ج ١ ص ١٦٧ ، السيوطى ج ١ ص ٧٠ ، البلاذرى ص ٢٢٩ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٧٨ .

وبدأ العرب ينافسون الروم فى ركوب البحر ، فتغلبوا على قبرص ورودس ، وأغاروا على كريت ،وأراد معاوية مهاجمة القسطنطينية ، فآثر قنسطانز أن يبدأ هو بالهجوم ، والتقى الأسطول المصرى والشامى مع الأسطول البيزنطى بالقرب من مياه الاسكندرية فى موقعة حاسمة تعرف بموقعة ذى الصوارى ، وانتهت هذه الموقعة بهزيمة الروم هزيمة شنعاء (١) .

من ذلك كله نعلم أن موقع الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط كان موقعا يعرضها لخطر الغزو البحرى ، وهكذا جاء رأى عمر الحصيف باتخاذ حاضرة أخرى غيرها ، واهتدى عمرو بن العاص إلى موقع الفسطاط وهو موقع متوسط بين الدلتا والصعيد يستطيع منه الاشراف على مصر العليا ومصر السفلى .

* * *

يتفق المؤرخون العرب على أن عمرو بن العاص هدم أسوار الإسكندرية كلها بعد أن دخلها سنة ٢٥ هـ ،وقضى فيها علىمانويل ورجاله (٢) . إلا أن هذا القول فيه بعض المغالاة ، فان عمرا لم يهدم السور كله كما تذكر الروايات العربية، فقد كان العرب يخشون الروم عليها،ويعتبرونها بابا مفتوحا لنزولهم بأرض مصر (٣). ولذلك تركوا سورها الشمالى ، ويرجح الدكتور جمال الدين الشيال أن بعض أجزاء السور من جهتيه الشرقية والجنوبية قد هدمت أثناء الحصار والقتال بين العرب والروم إبان هذا الفتح الثانى للمدينة ، ويعتقد

---

(١) ارجع إلىالطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٦٩ ، ٧٠ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٦٠ — السيوطى ج ١ ص ٧١ — القريزى ج ١ ص ١٦٩ — حسين مؤنس : أثر ظهور الاسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية مايو ١٩٥١ ص ٩٠ — ٩٤ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٦٨ ، السيوطى ج ١ ص ٧٠ — البلاذرى ص ٢٢٩ .

(٣) عبد الهادى شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، مقال بكتاب الغرفة التجارية سنة ١٩٤٩ ص ٨٦ .

أن ما زعمه المؤرخون العرب لا يعدو أن يكون قالة ظالمة أو افتراء على عمرو(١) . غير أننا لا نستبعد أن يكون قد هدم الأجزاء الجنوبية، والجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية،من أسوار المدينة بعد دخوله لها،حتى يقضى بذلك على كل محاولة للثورة والانتقاض ، خاصة وأن العرب كانوا فى بداية عهدهم فى مصر حديثى عهد بنظم الثغور والمدن الساحلية ، ولم تكن لهم وقتئذ أساطيل تدافع النصارى ،وتردهم عن موانيهم . ولذلك أقاموا المحارس والنواظير على نحو ما سنذكره فيما بعد . على أنه استبقى من الأسوار الرومانية القديمة أهم أجزائها المعرضة للغزو البحرى ، يدل على ذلك ما ذكره على مبارك فى الخطط التوفيقية ، وفقاً لما أسفرت عنه أبحاث محمود باشا الفلكى ، من أنه تتبع آثار السور القديم من برج السلسلة (رأس لوكياس) إلى الحدرة مسافة ٣ ك.م. ،وتبين له أن هذا السور كان يمتد من برج السلسلة غربا إلى الميناء الغربية بحذاء الساحل، كما تتبع الفلكى باشا هذه الآثار ورسم السور المذكور(٢). ويذكر على مبارك أيضا أن أحمد بن طولون عندما جدد أسوار الاسكندرية، هدم الأسوار القديمة خاشا ما كان من جهة البحر والغرب ، فقد أبقى عليه مع بعض التغيير (٣) . كذلك نستنتج مما ذكره البلاذرى فى موضع آخر أن عمرًا اكتفى بتخريب سورها (٤) .

ولا شك أن الاسكندرية تأثرت بهدم أسوارها،فأخذت فى الاضمحلال على أثر الفتح العربى ، وانكمشت رقعتها،خاصة بعد أن هجرها عدد كبير من

(١) جمال الدين الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافية المدينة وتطورها ، من كتاب الغرفة التجارية ص ٢٠٩ .

(٢) على مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها بولاق سنة ١٣٠٥ هـ الجزء السابع ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٣) نفس المرجع ص ٤٣ .

(٤) يقول البلاذرى : « فلما كان قتالها الآخر وقدمها منويل الرومى الخصى أغلقها أهلها ، ففتحها عمرو وأخرب سورها » . ص ٢٣٠ .

سكانها الروم ومع ذلك فقد أولاها الخليفة عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان من بعده، عناية كبرى، لأنها كانت معرضة للهجوم من البحر، وكانت أصلح موانئ مصر لنزول العدو. لذلك اعتبرها المسلمون ثغرا من الثغور الاسلامية التي يجاهدون فيها، وقسم عمرو أجناده إلى قسمين متساويين: قسم أبقاه معه في الفسطاط، وقسم وزعه إلى نصفين: نصف لرباط الاسكندرية وحدها، والنصف الثاني في سائر السواحل، "وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط بالإسكندرية، فكانت الولاة لا تغفلها وتكثف رابطتها ولا تأمن الروم عليها" (١) كذلك اهتم عثمان بن عفان بالاسكندرية، فكتب إلى عبد الله بن سعد: "قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية، وقد نقضت الروم مرتين، فألزم الاسكندرية رابطتها ثم أجرى عليهم أرزاقهم وأعقب منهم في كل ستة أشهر" (٢).

وهكذا نزل الجند في الاسكندرية منذ الفتح العربي، ونزح إليها العرب طلبا لثواب الهجرة وأجر الجهاد، فقد ذكر صاحب كتاب "الرسالة العوفية في فضل الاسكندرية" عن سعيد بن جبير عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل سعيدا من أين جئت (وقد كان لقيه بالشام) فقال من الاسكندرية، فقال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن المقيم بها ثلاثة أيام من غير رياء كمن عبد الله تعالى سبعين سنة ما بين الروم والعرب (٣). ورووا عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله قال: الاسكندرية وعسقلان عروستان والاسكندرية أفضلها وإنها لتأتي يوم القيامة تزف بأهلها إلى بيت المقدس، فمن رابط بالاسكندرية أربعين يوما كتب له الله براءة من النار، وأمنا من العذاب. وذكروا أن الربيع بن خثيم، قال

---

(١) السيوطي ج ١ ص ٧١ — المقريزي: الخطط ج ١ ص ١٦٧.

(٢) السيوطي ج ١ ص ٧١.

(٣) ابن دقماق ج ٥ ص ١١٦.

قدمت على على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال لى ألا تدخل معنا فيما نحن فيه فقلت : ما جئتك لأكون معك، ولا عليك، ولكن أحب أن تخبرنى بأفضل الأعمال ، فقال له على رضى الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الاسكندرية وقزوين بابان من أبواب الجنة من رابط فى إحداهما ليلة وجبت له الجنة » (١) .

وهكذا قرن المسلمون إسم الاسكندرية بالثواب والجهاد والجنة حتى عمرت بمن وفد إليها منهم ، وازداد عدد الحامية المرابطة من ثلاثة آلاف أول الأمر إلى ١٧ ألف أيام خلافة معاوية إلى ٢٧ ألف (٢) . وممن نزلها من الصحابة سرق بن أسيد ويعرف بأسد الجهنى ، ويقال له الديلمى وسفيان بن هانىء بن جبير أبو سالم الجيشانى (٣)،والمستورد بن سلامة بن عمرو الفهرى،ومسلمه بن مخلد (٤) . وكانت سواحل الاسكندرية مزودة بالرباطات ، أى المحارس التى يقيم فيها المجاهدون،ويقول ابن رسته " بالاسكندرية رباطات مع الساحل يضرب ماء البحر حيطانها ، تسمى المحارس " (٥) فاذا شاهد الحراس بأعلى المحارس سفنا للعدو بادروا بانذار الجند لمقابلتهم وكانت حامية الاسكندرية تنقسم إلى عرافات لكل عريف قصر أو دار ينزل فيه بمن معه من أصحابه فتكون الدار الواحدة لقبيلتين أو ثلاث قبائل (٦) .

وكان طبيعيا أن يقوم المسلمون فى الاسكندرية ببناء المساجد الجامعة التى كانت تتخذ ، بالإضافة لها وظيفتها الأولى ، مراكز للاجتماعات العلمية

---

(١) ابن دقماق ج ٥ ص ١١٧ أنظر أيضا ما رواه السيوطى ج ١ ص ٧١ .
(٢) عبد الهادى شعيرة : المرجع السابق ص ٨٦ .
(٣) السيوطى ج ١ ص ٨٧ .
(٤) نفس المرجع ص ٩٨ .
(٥) ابن رسته ص ١١٨ .
(٦) ابن دقماق ص ١١٨ — عبد الهادى شعيرة ص ٨٨ .

والسياسية . ويذكر المؤرخون أنه أقيم فى الاسكندرية فى القرن الأول للهجرة خمسة مساجد هى: مسجد موسى عليه السلام عند المنار ، ومسجد سليمان عليه السلام (عند القيسارية) ومسجد ذى القرنين (يرجح أنه كان يقع بالقرب من قبر الاسكندر)، ومسجد الخضر ، ومسجد عمرو بن العاص الكبير ، ويعرف أيضا بمسجد الرحمة ، وسمى كذلك لأنه أقيم فى نفس الموضع الذى توقف فيه عمرو عن قتل أهل المدينة عندما افتتحها عنوة سنة ٢٥ هـ(١).

ويغلب على الظن أن مسجد الخضر المذكور قد أخطأ المؤرخون فى كتابته، ولعله الجامع الأخضر ، أو الجامع الغربى ، أو جامع الألف عمود ، وكان الداخل من باب المدينة الغربى وهو الباب الأخضر يشاهده عن يمينه ، وكان ما يزال قائما عند دخول الفرنسيين أرض الاسكندرية . ولقد أقيم هذا المسجد على أنقاض كنيسة (٢) العذراء مريم التى كان قد بناها البطريرك ثيوناس (٢٨٢ — ٣٠٠ م) على شاطىء الميناء الغربى . ويضيف الدكتور شعيرة إلى هذه المساجد المذكورة مسجدا سادسا هو مسجد المنارة الذى كان يرابط فيه متطوعة المصريين وغيرهم (٣) . أما جامع الخضر المذكور فلعله كان يقع عند القيسارية ، ولقد ذكر السيوطى أن مسجد الخضر مسجدان أحدهما القيسارية والآخر عند باب المدينة (٤) .

* * *

---

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ . ذكر ياقوت أن مسجد الرحمة يقع عند عمودين يعرفان بالمسلتين (معجم البلدان المجلد الأول ص ٢٥٦) أى عند معبد القيصريوم .

(٢) E. Combe: Le texte d'Al-Nuwairi, B. F. A. A. vol. III, 1946, p. 110, Note I

عزيز سوريال عطية : المرجع السابق ص ٨٣ ، على مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) عبد الهادى شعيرة ص ٨٦ — جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ص ٢١٢ . نلاحظ أن هذا الجامع الذى بالمنارة من بناء الملك الكامل (أنظر السيوطى ج ١ ص ٣٩) .

(٤) السيوطى ج ١ ص ٣٧ .

تشير بعض المصادر العربية إلى أن إعادة بناء أسوار الاسكندرية تم فى عصر أحمد بن طولون (١) ، ولكن هذه الأسوار الجديدة لم تطوق المدينة القديمة كلها ،وإنما اقتصرت على إحاطة المناطق المأهولة بالسكان فحسب ، فقد أخرجت من السور منطقتان كبيرتان فى شرق المدينة وجنوبها ، فالمنطقة الشرقية كانت تضم مقابر اليونان والرومان ، والمنطقة الجنوبية كانت تضم بعض المزارع وأطلال معبد السرابيوم (٢) بجانب بعض الآثار الرومانية التى يشرف عليها عمود السوارى. وهكذا تقلصت رقعة المدينة(٣)، وإن كانت ما تزال تحتفظ بنظامها اليونانى الرومانى . وليس معنى ذلك أن الاسكندرية قد فقدت مكانتها إلى الأبد ، ولكنها ظلت محتفظة بازدهارها القديم . وكل ما فى الأمر أنها أصيبت بنكسة قصيرة الأمد بعد أن افتتحها العرب، ودمروا أسوارها،وأجلوا عنها سكانها الروم . ولم يؤثر تركيز الحكومة الاسلامية فى العاصمة الجديدة الفسطاط فى ازدهار الاسكندرية ، فلم تكد تمضى موجة الفتح العربى حتى أخذت الاسكندرية تستعيد مكانها ، ففى عهد عبد الله بن سعد استأنفت دار الصناعة القديمة بالاسكندرية نشاطها فى إنتاج السفن، كما استأنفت دار الطراز الرومانية إنتاجها ما اشتهرت به الاسكندرية من منسوجات كتانية حتى،قيل إن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لانظير لها،وتحمل إلى أقطار الأرض،وكانت هذه المنسوجات تعرف باسم الشرب(٤). كذلك احتفظت الاسكندرية بمركزها التجارى القديم ، فكانت أهم مركز

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٣ .

(٢) جمال الشيال ، الاسكندرية ص ٢١٠ .

(٣) يقول على مبارك : أن مساحة المدينة فى زمن ابن طولون أصبحت أقل من نصف مساحتها فى زمن الرومان (الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٤٤) .

(٤) عبد الهادى شعيرة ص ٩٠ ، سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٥٦ .

لتجارة البهار بالنسبة لدول أوربا(١) ولعل ذلك كان سببا من أسباب تسمية أحد أبوابها وهو الباب الجنوبى بباب البهار . وكانت البضائع تصل إليها ، ثم تنتقل بالسفن فى خليج الاسكندرية حتى تصل إلى النيل ، ومن الفسطاط إلى القلزم ، عن طريق خليج أمير المؤمنين . وكانت علاقة مصر قد توثقت فى العصر العباسى مع البندقية التى نهضت خلال القرن الثالث الهجرى ، فنشطت أساطيلها فى نقـل المتاجـر بين إيطاليا والدولة البيزنطية ومصر والشام . واستطاع البنادقة فيما يقرب من عام ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) أن ينقلوا رفات القديس مرقص من الاسكندرية إلى البندقية ، وعلى هذه الرفات أقيمت كنيسة سان ماركو الحالية (٢) .

وبجانب هذه الأهمية الاقتصادية لعبت الاسكندرية دورا هاما فى الوقائع والأحداث التاريخية فى العصر العباسى ، وأهم هذه الوقائع التجاء أهل ربض قرطبة إليها بعد أن نفاهم عنها الأمير الحكم بن هشام، واستقلالهم فيها عدة سنوات . فلقد وصل الربضيون إلى هذه المدينة سنة ٢٠٠ هـ فى وقت كانت الفوضى ضاربة أطنابها بمصر ، وكانت الاسكندرية نفسها عرضة لغارات العرب من قبيلتى لخم وجذام ، واستغل الربضيون هذه الفرصة واستولوا على الاسكندرية، وتحالفوا مع اللخميين والصوفية ، وأقاموا على ولاية المدينة أبا عبد الرحمن الصوفى ، فأساء الحكم، وانتشر الفساد، حتى ضاق به الربضيون، فعزلوه، وولوا مكانه واحدا منهم اسمه الكنانى ، وكان آخر ولاتهم عمر بن شهيب الباوطى . وفى هذه الأثناء قلد المأمون قائده عبد الله بن طاهر ولاية مصر ، فتغلب على ابنى السرى ، واستتب الأمر له فى مصر، ولم يبق له سوى استرداد الاسكندرية من أيدى الربضيين، فسار إليها فى قواته فى طليعة صفر سنة ٢١٢ هـ (مايو ٨٢٧) ، وضرب عليها الحصار مدة عشرة أيام، فاضطر الربضيون إلى مصالحته، وقبلوا شروطه، وتتلخص فى أن يغادروا

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٣٩ .

(٢) فييت : المواصلات فى مصر ، مقال فى كتاب « فى مصر الاسلامية » ص ٣٩ .

المدينة إلى حيث يشاءون، وألا يستصحبوا أحدا من أهل مصر فى مراكبهم، وألا ينزلوا بلدا خاضعا للدولة العباسية . وهكذا رحل الربضيون عن الاسكندرية ، واستقروا بجزيرة إقريطش ، وأسسوا فيها دولة دامت نحو ١٣٥ سنة، ونشروا فيها الاسلام، وأسسوا المدن، وأنشأوا قاعدة لحكمهم هى مدينة الخندق، التى سميت بعد ذلك باسم قندية، وانتهى أمر هذه الدولة بتغلب الامبراطور رومانوس الثانى عليها فى ٣٤٩ هـ (٩٦٠ م) (١) .

وكانت الاسكندرية فى هذا العصر أشبه بولاية قائمة بذاتها ، إذ كان يقوم بادارتها وال شبه مستقل، فلما تولى أحمد بن طولون ولاية مصر كلها ، سار إلى الإسكندرية وتسلمها من اسحق بن دينار ، فأقره واليا عليها .

وشهدت الاسكندرية بعض الازدهار فى عصر الدولة الطولونية ، فلقد عنى ابن طولون بها عناية كبيرة ، فقام بترميم منارها المشهور بعد أن تهدم طابقه الأعلى بفعل الزلازل (٢)، فجعل مكانه قبة من الخشب " ليصعد إليها من داخلها، وهى مبسوطة مؤربة بغير درج " (٣) وإليه يرجع الفضل فى تجديد أسوارها القديمة بعد أن ظلت مفتوحة للداخلين إليها والخارجين منها ما يزيد على قرنين من الزمان ، وفتح فى هذه الأسوار أبوابا تقابل الأبواب القديمة ، فالباب الشرقى سمى باب رشيد أو باب القاهرة ، وفتح فى السور الغربى بابا هو باب القرافة وفى الجنوب باب السدرة أو العامود . أما الباب الشمالى فظل كما كان من قبل مشرفا على الميناء الشرقية (٤) .

---

(١) ارجع إلى مقال صديق شيبوب . جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مجلة الكتاب فبراير سنة ١٩٤٩ ص ٢٢٦ — ٢٣٦ ، سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ٩٧ — ١٠٠ ، إبراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض ص ٩٢ — ٩٧ ، إبراهيم أحمد العدوى : الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٧ — ١١٠ ، عبد العزيز سالم : الحكم الربضى ، فى دائرة معارف الشعب العدد ٦٧ ص ٢٦٢ — ٢٦٤ ، حسين مؤنس : أثر ظهور الاسلام ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) حدث هذا الزلزال عام ١٨٠ هـ (٧٩٦ — ٧٩٧ م) .

(٣) المسعودى : كتاب التنبيه والاشراف ص ٤٣ .

(٤) جمال الشيال : الاسكندرية طبوغرافيتها ص ٢١٠ .

الفصل الثالث

الإسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى

الفصل الثالث

الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى

لم يمض على تأسيس الدولة الفاطمية بافريقية " المغرب الأدنى " خمس سنوات ، حتى طمع عبيد الله المهدى فى غزو مصر ، لموقعها الجغرافى الهام ، وثرائها الوافر ، وصلاحيتها لأن تكون مركزا للدعوة الشيعية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية . وشرع فى تنفيذ رغبته منذ عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) عندما أعد جيشا ضخما بقيادة ابنه أبى القاسم ، وحباسة بن يوسف ، أحد زعماء بربر كتامة الذين اعتمد عليهم الفاطميون فى تأسيس دولتهم فى بلاد المغرب . وتقدم الجيش الفاطمى شرقا نحو مصر ، واستولى فى طريقه إليها على برقة ، وواصل زحفه حتى دخل الاسكندرية ، واستولى عليها بدون مقاومة . ويبدو أن أهل الإسكندرية كانوا يميلون إلى الفاطميين ويعطفون على دعوتهم ، فلقد ناصر أهل الاسكندرية العلويين حين اضطهدهم المتوكل ومن تبعه من الخلفاء (١) ، وفتحت الإسكندرية أبوابها لأهل لوبية ومراقية(٢) . ويغلب على الظن أن دعاة الاسماعيلية فى مصر قد نجحوا فى مهمتهم نجاحا تجاوز كل تقدير فى الحسبان ، إذ أعدوا أهل البلاد لتقبل الفتح الفاطمى . غير أنه لم يقدر لجيش الفاطميين أن يستولى على مصر فى هذه المرة ، إذ أن الخليفة العباسى المقتدر بالله لم يتردد حين علم بدخول المغاربة الاسكندرية

---

(١) عبد الهادى شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربى ص ٩١ .

(٢) المقريزى الخطط ج ١ ص ١٧٤ ، حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية . القاهرة ١٩٥٨ ص ١١٤ — ١١٥ .

فى إرسال جيش كثيف إلى مصر ، جعل على مقدمته مؤنس الخادم . واستطاع مؤنس الخادم أن يهزم جيش المغاربة فى موقعة مشتول بالقرب من الجيزة ، ويرغمهم على العودة من حيث أتوا .

وعاود الفاطميون الكرة مرة أخرى عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م)،واستولى أبوالقاسم بن عبيد الله المهدى على الاسكندرية فى صفر سنة ٣٠٧ هـ ، وتوغلت قواته فى الدلتا حتى وصلت الأشمونين والفيوم ، وهناك اشتبكت مرة ثانية مع قوات العباسيين والاخشيديين،فدارت الدائرة على الجيش الفاطمى ،وأحرق عدد كبير من سفن الأسطول الفاطمى ، كما قتل وأسر معظم رجال الجيش (١) . ثم كانت المحاولة الثالثة سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) . وفيها دخل الجيش الفاطمى الاسكندرية فى ربيع الآخر سنة ٣٢٤ هـ فى عهد الإخشيد ، الذى استطاع أن يتغلب على الفاطميين ويرغمهم على العودة إلى بلاد المغرب .

وأخيرا نجح جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله فى الاستيلاء على الاسكندرية (٢) وأرست قطع الأسطول الفاطمى فى مياهها فى رجب سنة ٣٥٨ هـ (يونية سنة ٩٦٩ م) . واشتبك جوهر مع الاخشيديين والكافورية بقيادة نحرير الأرغلى ويمن الطويل بالقرب من الفسطاط ،

---

(١) نفس المرجع ص ١١٥ ، جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٨ .

(٢) يذكر المقريزى نقلا عن أبى محمد الحسن بن زولاق ، أنه « لما قربت العساكر من الاسكندرية جمع الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى ابن الحسن بن الفرات الناس وشاورهم ، فاتفقوا على مراسلة جوهر وأن يشترطوا عليه شروطا وأنهم يسمعوا له ويطيعونه ، ثم اجتمعوا على محاربته ، ثم انحل ذلك وعادوا إلى المراسلة بالصلح . . » ثم خرج وفد من قضاة مصر فلقوا جوهرا بتروجة : (بالبحيرة) فأجابهم إلى ملتمسهم . (أنظر أتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ١٩٤٨ ص ١٤٧ .

وانتهى الأمر بفتح الفاطميين للعاصمة المصرية . وفى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ (٢٩ مايو سنة ٩٧٣ م) وصل المعز لدين الله إلى الإسكندرية قادما من المهدية ومتجها إلى القاهرة مقره الجديد ، ودخل المعز مدينة الاسكندرية وهو ممتط جواده ، فاستقبله القاضى أبو طاهر محمد بن أحمد وأعيانها ، فجلس الخليفة المعز عند المنارة فى ذلك اليوم وخطب فيهم خطبة طويلة ووعظهم ، فبكى وأبكى (١) .

ومنذ ذلك الحين عظمت الاسكندرية وتألقت ، واستعادت ازدهارها فى القديم ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر وثغرها المنيع الذى تفد إليه السفن التجارية حاملة سلع الشرق والغرب ،ومنها تنقل إلى الفسطاط ، ولذلك نافست الاسكندرية بغداد فى الزعامة التجارية (٢) . كما أنها أصبحت قاعدة للأسطول الفاطمى فى البحر المتوسط ، وكانت بذلك محط الأساطيل العربية القادمة من المغرب والأندلس إلى شواطىء الشام ومصر (٣) ،ويذكر البكري أن سفن المغرب كانت تفد من ثغور المغرب إلى الاسكندرية حاملة المتاجر المغربية إليها . ويتضح لنا مما ذكره أن هذه السفن كانت تسير بحذاء الساحل الإفريقى وكانت ترسو بثغور هذا الشاطىء حتى تصل إلى الإسكندرية ، ومنها كانت

---

(١) عبد الهادى شعيرة ، الاسكندرية منذ الفتح العربى ص ٩١ ، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٠ ، جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٤١ .

(٢) حسن إبراهيم حسن ص ٦١٠ . يذكر هايد أن الاسكندرية كانت ترتبط تجاريا مع بلاد أوربا مثل مدينة أمالفى التى كان لها فنادق كثيرة فى الاسكندرية ، ومثل مدينة جنوة التى كانت لها جالية من أكبر الجاليات الأجنبية فى الاسكندرية وكذلك مدينة البندقية التى كانت سفنها ترسل إلى الاسكندرية الأخشاب لاستخدامها فى صناعة السفن .

Hyde: Histoire du Commerce du Levant au moyen - âge. t. I. P. 105 (Leipsiz 1923)

(٣) إبراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية ص ١٣٨ .

تخرج إلى أنطاكية ، مارة بسواحل مصر كدمياط وتنيس وسواحل الشام (١).

وكان أهل الاسكندرية ، بحكم تطرفها وعزلتها عن البلاد ، يميلون إلى المعارضة والاستقلال ، فقد كانت الاسكندرية قبل العصر الطولونى ولاية مستقلة ، كما أقام فيها الربضيون جمهورية أندلسية مستقلة دامت ما يقرب من عشرة سنوات ، وكانت الاسكندرية كذلك على اتصال بالفاطميين أيام الدولة الإخشيدية . فلما جاء الفاطميون حن أهلها إلى الانفصال ، فمنها قام ناصر الدولة بن حمدان ضد المستنصر ، وأقام الخطبة للخليفة العباسى القائم بأمر الله (٢) ، وفيها ثار الأوحد سنة ٤٧٧ هـ على أبيه بدر الجمالى ، والتف حوله جماعة من الأعراب ، فسار إليه أبوه وقبض عليه ، وقتل عددا كبيرا من أتباعه ، وصادر كثيرا من أموال أهالى الاسكندرية ، وأنفق منها على تأسيس جامع العطارين (٣) ، وفيها قامت الحركة النزارية عقب وفاة المستنصر بالله (٤٨٧ هـ) ، ومبايعة الوزير الأفضل شاهنشاه للمستعلى بالله وإقصائه للابن الأكبر أبى منصور نزار . فقد غضب نزار وسار إلى الاسكندرية التى خرج أهلها وواليها ناصر الدولة أفتكين وقتئذ على طاعة الخليفة الجديد ، وانحازوا إلى نزار بعد أن قدم إليهم مع أخيه عبد الله ، وبايعوه بالخلافة ولقبوه المصطفى لدين الله (٤) . فلما علم الأفضل بذلك خرج

---

(١) أبو عبيد الله البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره دى سلان فى الجزائر سنة ١٩١١ ص ٨٦ .

(٢) جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٨ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٨٢ ، يقول المقريزى أن بدر الجمالى نزل الاسكندرية (وقد ثار بها جماعة مع ابنه الأوحد فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة إلى أن أخذها عنوة ، وقتل جماعة ممن كان بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات ، وفرغ من بنائه سنة تسع وسبعين وأربعمائة) .

(٤) جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٨٨ — حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٧٢ .

لقتال نزار فى الاسكندرية ، ولكنه انهزم وعاد إلى القاهرة ، ثم أعاد الكرة مرة أخرى ، ودخل الاسكندرية بعد حصار دام سبعة شهور ، قذف أسوارها بحجارة المجانيق ، وقضى على الفتنة ، وقتل نزاراً وأفتكين (١) .

كذلك اشتركت المعارضة فى الاسكندرية فى الصراع الأخير بين الوزراء ، فسار واليها على بن السلار بجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة بالقوة من يد الوزير ابن مصال فى خلافة الظافر بأمر الله ، وتولى ابن السلار الوزارة على الرغم من أنه كان سنيا (٢) .

ومع ذلك فقد شهدت الاسكندرية ازدهارا كبيرا فى الحياة الفنية والعلمية والاقتصادية فى العصر الفاطمى ، فعمرت بالمبانى الفخمة ، والمصانع الجليلة ، وأقيمت فيها المدارس والمساجد والحصون والقصور . ومما يدل على ازدهار هذه المدينة وتألقها فى العصر الفاطمى ما ذكره ابن سعيد المغربى فى وصف قصر بالاسكندرية لقاضيها مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد الحميد ، فى عصر الخليفة الآمر بأحكام الله ، فيقول : «وكان بالاسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد الحميد بن أحمد بن الحسن بن حديد(٣) ،

---

(١) جمال الدين الشيال : الاسكندرية ، طبوغرافيتها . . . ص ٢٢٠ .

(٢) عبد الهادى شعيرة : الاسكندرية منذ الفتح العربى ص ٩١ .

(٣) ابن حديد هذا لعله أندلسى من أسرة ابن حديدى الطليطلية التى كان أفرادها يقومون بالوزارة أيام ملوك الطوائف فى نفس هذا العصر وكان منهم القضاة ، ونعرف أن أحدهم وهو أحمد بن حديد أقام مسجد الباب المردوم بطليطلة سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) أنظر كتابى: المساجد والقصور فى الأندلس ص ٥١ ، وكتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٠٧ ، والذخيرة لابن بسام المجلد الأول قسم رابع ص ١١٨ ، ولقد قام القادر بالله يحيى بن ذى النون ملك طليطلة (٤٦٧ هـ — ٤٧٢ هـ) بقتل ابن حديدى المذكور . ولعل القاضى الاسكندرى مكين الدولة ابن حديد هذا من أعقاب هذا الوزير الشهيد ، نزح إلى الاسكندرية بعد قتل ابن حديدى واضطهاد أسرته .

له مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمداح كثيرة ومدحه ظافر الحداد ، وأمية أبو الصلت وغيرهما . وكان له بستان يتفرج فيه ، به جرن (١) كبير من رخام ، وهو قطعة واحدة ينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره ، وكان يرى فى نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم والمباهاة فى عصره ، فوشى به للبدوية محبوبة الآمر (٢) ، فسألت الآمر فى حمل الجرن إليها ، فأرسل إلى ابن حديد فى إحضار الجرن ، فلم يجد بدا من حمله من البستان ، فلما صار إلى الآمر ، أمر بعمله فى الهودج فقلق ابن حديد وصارت فى قلبه حزازة من أخذ الجرن ، فأخذ يخدم البدوية وجميع من يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة ، الخارجة عن الحد فى الكثرة ، حتى قالت البدوية : هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه ، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا ، فلما قيل له عنها هذا القول قال : ما لى حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز ، غير رد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم ، من نعمتهم ترد إلى مكانها ، فتعجبت من ذلك ، وردتها عليه ، فقيل له : قد حصلت فى حد أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب ، فنزلت همتك إلى قطع حجر ، فقال : أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه ، وقد بلغها الله تعالى أملها " (٣) . وذكر ابن سعيد أيضا مثلا آخر يدل على عظم الرخاء فى الاسكندرية فى ذلك العصر ، فيروى أن الآمر بأحكام الله قلد سلطان الملوك حيدره أخا الوزير المأمون بن البطائحى ولاية ثغر الإسكندرية سنة ٥١٧ هـ (١١٢٣ م) وأضاف له إليها الأعمال البحرية

---

(١) الجرن فسقية أو نافورة .

(٢) أغرم الآمر بأحكام الله ببدوية أحبها وتزوجها وابتنى لها قصرا فى روضة مصر سماه الهودج، موقعه بجوار البستان المختار . وكان يتردد إليه كثيرا وقتل وهو متردد إليه (أنظر المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب طبعة محيى الدين عبد الحميد ، الجزء الثالث ص ٥٨ .

(٣) المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ٣ ص ٦٠

فلما وصل حيدرة إلى الثغر ، وصف له الطبيب دهن الشمع بحضرة القاضى مكين الدولة بن حديد ، فأحضروه له فى حق مختوم ، ففك حيدره عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بلور فيه ثلاثة بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب ، مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر : بيت دهن ممسك، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، وأقسم القاضى أن يهبه لحيدرة . وذكروا أن قيمة هذا المداف بلغت نحو خمسمائة دينار . ويتساءل ابن سعيد قائلا : " فانظر رحمك الله تعالى إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لايكاد أكثر الناس يحتاج إليه فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات (١) .

ومن أهم المنشآت التى أقامها الفاطميون فى الاسكندرية ما يأتى :

جامع العطارين :

كان يقوم فى موضعه مسجد قديم أقيم فى فجر الاسلام على أساس كنيسة القديس أثناسيوس، وقد أصيب هذا المسجد القديم بأضرار فادحة فى أوائل العصر الفاطمى ، إذ تهدمت بعض جدرانه وتهاوت سقفه ، فلما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى إلى الاسكندرية سنة ٤٧٧ ﻫ فى طلب ابنه الثائر عليه ،وشاهد هذا المسجد فى صورته التى آل إليها ،أمر بتجديده وترميمه، وأنفق عليه من أموال " المصادرات " أى الأموال التى أغرم بها الثائرين من أهل الاسكندرية ، سجل ذلك فى لوحة تاريخية لم يبق سواها من المسجد القديم نطالع فيها النص التالى : (بسم الله الرحمن الرحيم (٢) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، مما أمر بانشائه السيد الأجل أمير الجيوش ،سيف الإسلام،

---

(١) نفس المرجع ص ٦١ .

(٢) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ القاهرة ١٩٤٦ ص ٦٧ .

ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبو النجم بدر المستنصرى ، عند حلول ركابه بثغر الاسكندرية ومشاهدته هذا الجامع خرابا ، فرأى بحسن ولائه ودينه تجديده زلفا إلى الله تعالى ، وذلك فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وأربع مائة "(١) . وعرف هذا الجامع بجامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش بدر الجمالى ، وبجامع العطارين بسبب وجوده فى سوق العطارين ، ولم يتبق من هذا المسجد القديم أى آثار إذ ، جدد بالبناء سنة ١٩٠١ بأمر عباس حلمى .

مسجد الطرطوشى (٤٥١ — ٥٢٠ ﻫ)

أقامه الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى الطرطوشى الأندلسى ، ويعرف بابن أبى رندقة ، أحد كبار أئمة الأندلس (٢) . نزل الاسكندرية واستوطنها وبقى فيها حتى مات فى شعبان سنة ٥٢٠ ﻫ وقيل فى جمادى الأولى سنة ٥٢٥ ﻫ ، (٣) . وكان قد تقرب

---

(١) نفس المرجع ص ٦٧ . هذه اللوحة مثبتة فى قاعدة المئذنة على يسار الداخل من الباب الشمالى الشرقى .

(٢) أنظر ابن بشكوال : كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس المجلد الثانى مدريد ١٨٨٣ ص ٥١٨ يقول ابن بشكوال فى ترجمته « صحب القاضى أبا الوليد الباجى بسرقسطة وأخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجاز له ثم رحل إلى المشرق فحج ودخل بغداد والبصرة فتفقه عند أبى بكر الشاشى وأبى أحمد الجرجانى وسمع بالبصرة من ابى على التسترى وسكن الشام مدة درس بها وكان إماما عالما عاملا زاهدا ورعا دينا متواضعا متقشفا متقللا من الدنيا » . . . ويذكر فرنسيسكو بونز بويجس أن خروجه من الأندلس كان فى سنة ٤٧٦ ﻫ (١٠٨٣ م) (أنظر Francisco Pons Boigues, Ensayo Bio-Bibliografico sobre los Historiadores y Géografos arabigo-Espanoles, Madrid 1898, p. 183.

وذكر المقرى أنه زار قبره بالاسكندرية (نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٠) وقال فى موضع آخر أنه زار قبره مرارا قبالة الباب الأخضر باسكندرية (ص ٢٩٣)

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٢ .

إلى الوزير المأمون بن البطائحي ، فأكرمه المأمون إكراما كثيرا ، فصنف له الطرطوشي كتابه المشهور " سراج الملوك " . وذكر المقريزي أن هذا الفقيه أقام المسجد الموسوم باسمه خارج باب البحر ، في خلافة الآمر بأحكام الله سنة ٥١٠ هـ ، وذلك من مال الديوان السكندري (١) . وقد ضاعت معالم هذا المسجد في الوقت الحاضر ، وإن كان على باشا مبارك قد أثبت أنه كان متخربا في أيامه ، وأنه أصلح سنة ١٨٥٣ على يدي السيد إبراهيم مورو ، وأن والدة الخديوي إسماعيل أتمت تجديده (٢) .

مسجد المؤتمن :

أقام المؤتمن ، سلطان الملوك ، نظام الدين أبو تراب حيدرة أخو الوزير المأمون البطائحي هذا المسجد في المحجة العظمى (الطريقة الممتد بين باب رشيد حتى غرب الاسكندرية) سنة ٥١١ هـ أي في العام الذي أقيم فيه واليا على الاسكندرية (٣) .

المدارس السنية :

كان أهل الاسكندرية يميلون إلى المذهب السني ، فأقيمت لذلك بالاسكندرية في العصر الفاطمي مدرستان سنيتان ، إحداهما مدرسة الفقيه المحدث أبي طاهر بن عوف (٤) ، أقامها له رضوان بن ولخشي ، وزير الخليفة الحافظ لدين الله ، سنة

---

(١) جمال الشيال : الاسكندرية (كتاب الغرفة التجارية) ص ٢١٧ .

(٢) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٧٠

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٨ .

(٤) هو أبو الطاهر إسماعيل بن مكي بن عيسى بن عوف الزهري الاسكندراني تفقه على الامام أبي بكر الطرطوشي وسمع منه ومن أبي عبد الله الرازي وبرع في المذهب وتخرج به الأصحاب ، وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه الموطأ . وتوفي في شعبان سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) عن ٩٦ سنة (أنظر السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٢ — حسن عبد الوهاب : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب العدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٣٨٣) .

٥٣٣ هـ (١١٣٧ م)، والثانية مدرسة الحافظ السلفى، (١) بناها له العادل بن السلار، وزير الخليفة الظافر، سنة ٥٤٤ هـ، وأقامه على التدريس فيها. وتعتبر هاتان المدرستان أولى المدارس التى أنشئت فى مصر الاسلامية (٢).

* * *

فى سنة ٥٦٢ هـ قدمت جيوش أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية ، فلقد تبين لهذا القائد غدر شاور بن مجير السعدى ونكثه لعهده ، وعظم الأمر على شاور فأرسل يستنجد بمري ملك بيت المقدس ، وقدم مرى بجيوشه فى نفس هذا العام، فوصل إلى بلبيس، وهناك وافاه شاور وجيشه واشتبكت جيوش شيركوه مع جيوش الصليبيين والمصريين فى موقعة البابين فى الأشمونين ، وسار شيركوه بعد انتصاره إلى الإسكندرية، فاستولى عليها، وأقر بها ابن أخيه صلاح الدين (٣). وعاد شيركوه إلى الصعيد للاستيلاء عليه ، وانتهز شاور والفرنج هذه الفرصة وضربا الحصار على الاسكندرية ، فاحتمى صلاح الدين بأسوارها، ودام الحصار مدة ثلاثة أشهر ، صمد فيها للحصار بفضل معونة واليها ، ومساعدة أهل الاسكندرية له ، رغم نفاذ الأقوات والمؤن بسبب الحصار المضروب على المدينة برا وبحرا . فلما علم أسد الدين شيركوه بذلك عاد مسرعا إلى مصر وحاصر القاهرة ، فاضطر شاور إلى رفع الحصار عن الاسكندرية بعد أن صالح شيركوه نظير خمسين ألف دينار يدفعها إلى هذا الأخير .

(١) هو أحمد بن محمد بن سلفة الحافظ الكبير أبو طاهر بن أحمد السلفى الأصبهانى، استوطن الاسكندرية سنة ٥١١ هـ وعنه أخذ كثير من علماء مصر ، وفى سنة ٥٤٦ هـ أنشأ له ابن السلار مدرسة كان يقوم بالتدريس فيها وتوفى السلفى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ م) أنظر السيوطى ج ١ ص ١٤٨ — ١٤٩ ، حسن عبد الوهاب : الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٣٨٣ .

(٢) أنظر : السيد عبد العزيز سالم : كتاب مساجد ومعاهد ج ٢ (كتاب الشعب رقم ٧٨) ص ٢٠٠ .

(٣) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٨ — السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨ . جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى (الغرفة

وقد ترك هذا الحادث فى نفس صلاح الدين أثراً عميقاً لم ينسه ، وحفظ لأهالى الاسكندرية هذا الصنيع ، فزار الاسكندرية سنة ٥٦٦هـ ولم شعث سورها. ثم شهدت الاسكندرية غزوا قام به الفرنجة بصقلية سنة ٥٦٩ هـ ، وتفصيل ذلك أن جماعة من أنصار الفاطميين تآمروا لإعادة الدولة الفاطمية ، واتفق المتآمرون سنة ٥٦٧هـ على استدعاء الصليبيين من صقلية والشام ، وكاتبوا كذلك راشد الدين سنان شيخ الاسماعيلية الحشيشية . غير أن صلاح الدين كشف هذه المؤامرة ، وقبض على المتآمرين وقتلهم . وفى أواخر عام ٥٦٩ هـ وفد فرنج صقلية فى أسطول ضخم ، تنفيذاً لاتفاقية المتآمرين ، ولم يكن ملك صقلية وقائد هذه الحملة (وليام الثانى بن وليام الأول بن روجر) قد علم بعد بفشل المؤامرة والقبض على المتآمرين . ويذكر ابن واصل أنه قدم فى جيش ضخم عدته ٥٠ ألف مقاتل ، وكان عدد سفنهم ٣٦ طريدة تحمل الخيل و ٢٠٠ شينى ، ٦ سفن تحمل آلات الحرب والحصار ، ٤٠ مركبا حمالة لحمل الأزواد والصناع وأبراج الزحف والدبابات (١) . ونزلت جيوش الفرنجة على الساحل مما يلى البحر والمنارة ، وحملوا على المسلمين حملة قوية أوصلتهم إلى السور ، وأقاموا الحصار على أسوار الاسكندرية ، ولكن حامية الاسكندرية صمدت فى بسالة وصبر . وفى اليوم الثالث من الحصار خرج المسلمون فجأة من أبواب الاسكندرية ، وهجموا على أعدائهم فمزقوهم كل ممزق ، وأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وقضوا على عدد كبير منهم ، وأحرقوا سفنهم ، واستولوا على آلاتهم وأمتعتهم (٢) .

= التجارية) ص ٩٣ ، الاسكندرية طبوغرافية . . ص ٢٢١ — الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين القاهرة ١٩٦٠ ص ٢٩ .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ج ٢ نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ ص ١٣ — ١٤ .

(٢) نفس المرجع ص ١٥ ، ١٦ — الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٩٤ . ذكر أبوشامة فى الروضتين نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى أحد أمراء الشام يخبره فيها بوصول الأسطول من صقلية لمهاجمة الاسكندرية ويصف =

لذلك كله وجه صلاح الدين إلى الاسكندرية عناية خاصة . فاختصها برعايته ، وزارها سنة ٥٦٦ هـ ، ورمم أسوارها وحصونها (١)، ثم زارها مرة ثانية فى رمضان سنة ٥٧٢ هـ هو وولديه الأفضل والعزيز ، لسماع الحديث من أبى طاهر السلفى ، وتردد على هذا الشيخ فى كل جمعة ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت (٢). واستغل هذه الزيارة فى الإشراف على أعمال التحصينات بالاسكندرية، وتعمير الأسطول وتقويته (٣) ، فأفرد له ديوانا خاصا سماه ديوان الأسطول (٤) .

ثم زار صلاح الدين الاسكندرية مرة ثالثة فى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨٢ م) "وخيم عند السوارى ، وشاهد الأسوار التى جددها، وأمر بالإتمام والاهتمام وقال (نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف) ، فحضر عنده وسمع عليه موطأ مالك بن أنس — رحمه الله عليه — بروايته عن الطرطوشى (٥) فى العشر الأخير من شوال، وتم له ولأولاده السماع "(٦) وفى هذه الزيارة ، أمر صلاح الدين باقامة مدرسة على نظام المدارس السلجوقية ، لم يكن الغرض منها تدريس المذهب السنى فحسب ، وإنما كانت تدرس فيها علوم اللغة والدين والطب والفلسفة ، وألحقت بهذه المدرسة مساكن للطلبة، وحمامات لاستحمامهم ، ومارستانا لعلاجهم . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذه المدرسة عند زيارته للاسكندرية فى أواخر عام ٥٧٨ (١١٨٢) فقال : " . . . . ومن مناقب

= فيها المعركة بين المسلمين والفرنجة (أنظر ملحق رقم ١٤ من مفرج الكروب ص ٤٨٣) .

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص ٣٠٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٥٦ .

(٣) الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٩٤ .

(٤) أبوشامة : الروضتين فى أخبار الدولتين (جزءان) ١٢٨٧ ج ١ ص ٢٦٩

(٥) هو محمد بن عبد الجبار الطرطوشى ، وفد إلى المشرق وذكره العماد فى الخريدة وهو غير أبى بكر الطرطوشى الذى ذكرناه آنفا (أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٢٩٢).

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٢ .

هذا البلد ومفاخره ، العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه ، المدارس والمحارس الموضوعة فيه ، لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعليمه ، وإجراء يقوم به فى جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج وغذاء . . . "(١) وكان للعناية الكبيرة التى خص بها صلاح الدين الاسكندرية أثر كبير فى ازدهار المدينة فى العصر الأيوبى ، فكانت وفقاً لما ذكره ابن جبير حسنة الموقع ، واسعة الأبنية ، فسيحة المسالك ، أبنيتها عالية ، وأسواقها عامرة ، وكانت تصل المدينة بالنيل ترعة تتفرع قنواتها داخل شوارع المدينة ، وتتوزع إلى الدور والمنازل (٢) .

ازدهرت الاسكندرية فى العصر الأيوبى ، ونمت تجارتها ، وأصبحت العاصمة الفعلية لمصر فى هذا العصر . وكانت مصر فى عصر صلاح الدين على علاقة تجارية بالجمهوريات الإيطالية ، فيذكر أبو شامة فى الروضتين نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد سنة ٥٧٨ هـ جاء فيها " فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام ، والعزائم

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٢ . نلاحظ أن عبارته التالية فيما يختص بالمساجد ، ومبالغته فى حصر عددها إلى ١٢ ألف مسجد ، أمر لا يخص الاسكندرية فحسب ، بل يقصد به مساجد مصر كلها . فلقد ذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب نقلا عن محمد بن عبد الوهاب المعروف بابن خزيمة الذى قدم إلى الاسكندرية سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) وأقام بها أربعين عاما أن بها حدائق وماء رائق ، وأهلها للخير فاعلون ، لا تبطل القراءة منها ولا طلب العلم ليلا ولا نهارا ، وبها ٨٠٠ مسجد منها ١٩٠ للخطبة ، وبها ١٨٠ مدرسة لطلب العلم . (أنظر الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٣٨٧) .

(٢) ابن جبير ص ٤١ .

الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية . . . ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية . . . ومن هؤلاء الجيوش، البنادقة والباشنة والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفارا يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون . . (١) "

وجرت العادة فى الاسكندرية بألا تبحر أى سفينة من السفن التجارية الايطالية إلا إذا دفعت ما كان مقررا عليها من الرسوم (٢) . كما كان أمناء السلطان يقومون بتقييد جميع ما يدخل بر الاسكندرية من سلع أو مال، وذلك ليفرضوا عليهم ضريبة جمركية ، وفى سبيل ذلك كانوا يقومون بتفتيش المسافرين. وقد حدث هذا لابن جبير عند نزوله بالاسكندرية فيقول : " فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدى زكاة ذلك كله . . . فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما جل، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدى إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها " (٣) وقد انتقد العبدرى أيضا ما يفعله رجال الديوان وأمناء السلطان من تعسف وإذلال للمسافرين، فيقول بعد وصفه الاسكندرية وعجائبها : " ومن الأمر المستغرب والحال الذى أفصح

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، ملحق رقم ١٥ ص ٤٩١ .

(٢) الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٠٣ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ص ٣٩ — ٤٠ .

عن قلة دينهم (يعنى أهل الأسكندرية) أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج، يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال، وقد رأيت من ذلك يوم ورودنا عليهم ما اشتد له عجبى ، وجعل الانفصال عنهم غاية أربى ، وذلك لما وصل إليها المركب، جاءت شرذمة من الحرس، لاحرس الله مهجتهم الخسيسة، ولا أعدم منهم لأسد الآفات فريسة ، فمدوا فى الحجاج أيديهم، وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعا من المظالم، وأذاقوهم ألوانا من الهوان ، ثم استحلفوهم وراء ذلك كله . . . " (١) ومن العجب أن هذه القاعدة التى جرى عليها ديوان الثغر ، استمرت حتى نهاية عصر المماليك، وكانت الحكومة تفرض على تجار الغرب والمسلمين الرسوم الباهظة ، وقد وصف فريسكو بالدى (فى القرن ١٤ م.) ما لاقاه على أيدى ضباط التفتيش، وقال بين ما قاله " فاستلمنا بعض الضباط ، وأخذوا فى عدنا كالبهائم ، ثم أثبتوا العدد فى دفاترهم، ولم يلبثوا أن فتشونا تفتيشا دقيقاً، وتركونا فى حراسة قنصل فرنسا، ثم حملت أمتعتنا إلى الديوان، وأعيدت ، وفحصت فحصا شديدا " (٢) ولقد علل الأستاذ فييت تشدد ديوان الاسكندرية فى التفتيش منذ عصر الدولة الأيوبية ، بأن مصر كانت فى حرب مع الصليبيين فى بلاد الشام (٣) .

وكان نتيجة لازدهار التجارة فى الاسكندرية ، باعتبارها مركزا لنقل التجارة بين الشرق والغرب ، أن أقامت الجمهوريات الإيطالية لها فنادق بالإسكندرية، فقد كان للتجار البنادقة فيها فندقان تتولى، إدارة الجمارك (الديوان

(١) ابن جبير : الرحلة (مقدمة فى ترجمة المصنف) ص ٢٧ .

(٢) فييت : المواصلات فى مصر، مقال فى كتاب (فى مصر الاسلامية) ص ٤٠ .

(٣) نفس المرجع . يذكر ابن مماتى أن ثغر الاسكندرية المحروسة كان أعظم ثغور مصر قدرا وأفخمها أمرا وأكثرها ارتفاعا ، وكان الديوان يفرض على تجار الروم الواردين على الثغر الخمس (أنظر ابن مماتى ص ٣١٥ — ٣٢٦) .

السكندرى) صيانتها والمحافظة عليها ، وكانت الفنادق فى العصور الوسطى مستودعات ضخمة للمتاجر والسلع تمهيداً لتوزيعها ، أما الغرف العليا بالفنادق فكانت تستخدم لسكنى النزلاء الأغراب من التجار (١)، وقد أشار بنيامين التطيلى إلى هذا النوع من المبانى فيقول : " وهذا البلد تجارى ، يؤمه الناس من جميع الشعوب والأمم المسيحية ، فمن بلاد الغرب : البندقية ، ولمبارديا، وتسكانة، وأبولية ،وأمالفى ، وصقلية ، وكالابرية ، ورومانيا ، وكازاريا وباتزيناكيا، وهنغاريا، وبلغاريا، وراكوفيا ، وكرواتيا ، واسكلافونيا ، وروسيا وألمانيا ، وسكسونيا ، ودنمركة ، وكرلانديا ، وايسلندا ، والنرويج ، واسكتلندا، وفرنسا ، وانجلترا ، وفلاندرز ، ونورمانديا ، وأنجو ، وبواتو ، وبورجونيا ، وبروفنس ، وجنوة ، وبيزا ، وغسقونيا ، وأرغون ، ونبارة . ومن بلاد الشرق الإسلامى : الأندلس ، والمغرب ، وافريقية ، وبلاد العرب ، والهند ، والحبشة ، وليبيا ، واليمن ، وبابل ، وسوريا ، واليونان ، وتركيا . وتأتيها السلع الهندية وجميع أنواع التوابل التى يشتريها التجار المسيحيون . وهى مدينة عامرة بالتجارة ولكل بلد فندق " (٢) . ولعل ذلك هو السبب فى تسمية باب سدرة من أبواب الاسكندرية باسم باب البهار ، لأن بهار الهند والشرق الذى يأتى إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، كان يحمل منها ، إما فى سفن تسير فى النيل، ثم فى خليج الاسكندرية ،حيث تفرغه خارج الاسكندرية عند هذا الباب ، وإما يحمل على ظهور الجمال إلى الاسكندرية، ويدخل إليها من هذا الباب (٣) . ويذكر ابن مماتى أن المراكب تسير بخليج الاسكندرية وتحمل إليها الشب والغلال ، والكتان ، والبهار ، والسكر ، وغير ذلك من الأصناف ، كما تحمل من الاسكندرية

---

(١) الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ٢٠٧ (أنظر مقالى عن الفنادق فى دائرة معارف الشعب العدد ٦٤) . يعطينا ابن جبير اسم فندق نزل فيه هو فندق الصفار على مقربة من موضع يسمى الصبانة (ص ٣٩)

(٢) Viajes de Benjamin de Tudela (1160-1173) p. 115

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٩٦ .

الأخشاب والحديد برسم عمارة المراكب ، وذلك فى شهر مسرى ، الموافق لشهر آب ، حيث ترتفع مياه النيل ، ويمتلىء خليج الاسكندرية بمياه النيل (١) .

* * *

وكان منار الاسكندرية يهدى السفن فى البحر إلى الميناء وإليه يشير الرحالة ابن جبير بقوله : " ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المنار الذى قد وضعه الله عزوجل على يدي من سخر لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين ، لولاه ما اهتدوا فى البحر إلى بر الإسكندرية(٢) ، يظهر على أزيد من سبعين ميلا . ومبناه فى غاية العتاقة والوثاقة طولا وعرضا يزاحم الجو سموا وارتفاعا ، يقصر عنه الوصف وينحسر دونه الطرف ، الخبر عنه يضيق ، والمشاهدة له تتسع »(٣) وذكر أيضا كثرة المساكن التى يشتمل عليها فى طوابقه المتعددة وأشار إلى مسجد بأعلاه ، موصوف بالبركة، يتبرك الناس بالصلاة فيه . كذلك وصفه بنيامين التطيلى فقال : " ومايزال المنار يهدى المسافرين فى البحر ، إذ أن كل من يأتى إلى الاسكندرية من أى مكان يمكنه أن يراه نهارا على بعد ١٠٠ ميل ، وفى الليل توقد فيه المشاعل حتى يرى رجال البحر لهيبها على مسافة بعيدة للغاية فيتجهون إليها " (٤) .

---

(١) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين جمعه وحققه عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ ص ٢٥٧ .

(٢) تتضح أهمية منار الاسكندرية للسفن القادمة إلى الميناء بسبب سهولة أرض المدينة ، وعدم وجود مرتفعات تنبىء عنها ، لذلك يبدو منار الاسكندرية أول شىء للسفن .

(٣) ابن جبير ص ٤١ .

(٤) Viajes de Benjamin de Tudela, p. 114.

الفصل الرابع

الاسكندرية فى عصرها الذهبى (عصر المماليك)

الفصل الرابع

الاسكندرية فى عصرها الذهبى (عصر المماليك)

شهدت الإسكندرية فى عصر المماليك نهضة اقتصادية وعمرانية كبرى لم تشهدها فى عصورها السابقة أو اللاحقة ، فقد اختصها سلاطين المماليك البحرية والجراكسة بعنايتهم ، وتهمموا بها غاية الاهتمام ، فأمهروها بروائع المنشآت ، الدينية والمدنية والحربية ، وزودوها بالقلاع والتحصينات ، منذ الوقت الذى بدأ فيه الصليبيون فى قبرص ورودس (١) يوجهون أنظارهم إليها ، بعد

---

(١) نجح السلطان الأشرف خليل فى طرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام بعد أن افتتح عكا آخر معقل لهم فى الشام فى ١٨ مايو سنة ١٢٩١، ودمر حصونها ومعابدها، ونقل بوابة كنيستها سان جان بعكا إلى القاهرة، غنيمة شاهدة له بانتصاره النهائى على الصليبيين، وقد استخدمت هذه البوابة فى تزيين مدخل مدرسة الناصر محمد بن قلاوون وضريحه بالنحاسين (كمال سامح : العمارة الاسلامية فى مصر ص ٨٥ — محمود أحمد ، تاريخ العمارة الاسلامية فى مصر ومقال فى كتاب « فى مصر الاسلامية » ص ٧٨) . غير أن سقوط عكا لم يقض تماما على الخطر الصليبى على مصر والشام ، فقد أقام بقايا العناصر الصليبية وعلى الأخص فرسان الاسبتارية فى جزيرة قبرص منذ عام ١٢٩١ م ، واتخذوها قاعدة لهم لتنفيذ سياستهم العدوانية ضد المماليك فى مصر والشام ، كما اتخذوا جزيرة رودس حصنا ومعقلا وبنوا لهم فيها سورا ضخما وقلاعا غاية فى الوثاقة والاحكام يتحصنون فيها من الغزاة (أنظر على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٤١ ، إبراهيم على طرخان ؛ مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٩٥) وظلت قبرص ورودس تناوئان دولة المماليك حتى افتتح برسباى قبرص سنة ١٤٢٦ م . أما رودس فقد فشل الظاهر جقمق فى فتحها ثلاث مرات منذ ١٤٤٠ حتى ١٤٤٤ ، وكان فشله أخيرا فى فتحها يرجع إلى وصول إمدادات قطالونية وبرجندية إلى الجزيرة (أنظر السخاوى : كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ ص ١٤ ، ٨٨ — ٨٩) وفى الملحق الخامس وصف أحد سفراء غرناطة للموقعة الأخيرة

أن فشلوا فى فتح مصرعن طريق دمياط مرتين فى عصر الدولة الأيوبية .
وكان يتولى أمر الاسكندرية فى عصر المماليك البحرية ولاة من أمراء الطبلخاناة ،
فلما كانت سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) حول السلطان الأشرف شعبان ولايتها
إلى نيابة ، باعتبار الاسكندرية أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض
المتوسط ، وأصبح يتولى شؤونها نائب يختار من أمراء المئين ، وكان هذا
النائب يتمتع بادىء ذى بدء بما كان يتمتع به نواب السلطنة المملوكية فى
نيابات ، طرابلس ، وصفد ، وحماة ، من نفوذ وسلطان ، وسرعان ما ارتفعت
مكانته وقوى نفوذه ، وأصبحت مرتبته تعادل مرتبة نائب السلطنة بالديار
المصرية (١) . وهناك عامل آخر ساعد على ازدياد أهمية الاسكندرية بحيث
أصبحت أهم ثغور مصر فى عصر المماليك ، هو أن المماليك هدموا بعض
أجزاء من دمياط خشية أن يجدد الصليبيون حملاتهم عليها (٢) ، فانتهت
الأولوية إلى الإسكندرية . كذلك ردم فم بحر دمياط فى عهد السلطان
بيبرس حتى لا تتمكن الأجفان الصليبية من الوصول إليها والاغارة على
مصر (٣) .

= ونلاحظ أنه فى سنة ١٤٠٥ قام أهل رودس بالاغارة على ثغر الاسكندرية واستولوا
على أربعة سفن مشحونة بالغلال والدقيق بما قيمته نحو مائة ألف دينار (أنظر
السخاوى ص ٣٢٤) .

(١) على إبراهيم حسن ، دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٢٣٧ . نلاحظ
أن نائب السلطنة فى مصر أصبح بمثابة السلطان الثانى ، فقد كان له الحق فى إصدار
القرارات ومنح ألقاب الامارة وتوزيع الاقطاعات (القلقشندى : صبح الأعشى
ج ٤ ص ١٦ ، سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية
ص ١٣٩) .

(٢) جمال الشيال : الاسكندرية : مقال فى مجلة الجمعية التاريخية ص ٢٢٧ —
سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٢١٠ .

(٣) سعيد عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ٢١٠ — على
ابراهيم حسن : دراسات ص ٤٢ .

وهكذا انفردت الاسكندرية بالمكانة الأولى بين سائر ثغور مصر ، وذكرها ابن بطوطة فمدحها بقوله : " هى الثغر المحروس والقطر المأنوس ، العجيبة الشان ، الأصيلة البنيان ، بها ما شئت من تحسين وتحصين ، ومآثر دنيا ودين ، كرمت مغانيها ، ولطفت معانيها ، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانيها ، فهى الفريدة تجلى سناها ، والخريدة تجلى فى حلاها ، الزاهية بجمالها المغرب ، الجامعة لمفترق المحاسن ، لتوسطها بين المشرق والمغرب ، فكل بديعة بها اجتلاؤها ، وكل طرفة فإليها انتهاؤها ، وقد وصفها الناس فأطنبوا ، وصنفوا فى عجائبها فأغربوا " (١) .

وكان للثروات الضخمة التى تدفقت على الإسكندرية من التجارة الشرقية والغربية أثر كبير فى ازدهار عمرانها وتقدمه تقدما يشهد به الرحالة المسلمون والمسيحيون على السواء ، ممن زاروا المدينة فى عصر المماليك ، وليس أدل على ذلك الازدهار من كثرة المنشآت المعمارية فى هذا العصر ، وهى منشآت تتفق من جهة مع الانتعاش الاقتصادى الذى أصاب المدينة بسبب تحول طرق التجارة إليها ، مثل الفنادق والوكالات ودور الصناعة ، وتعكس من جهة أخرى روح الجهاد التى سادت المدينة فى هذا العصر مثل الحصون والمساجد والأربطة والخانقاوات ودور الحديث . هذا إلى جانب منشآت مدنية مثل دار النيابة وخزائن السلاح . ويرجع الفضل فى ازدهار الاسكندرية وتألقها فى عصر المماليك إلى ستة سلاطين ، ثلاثة منهم فى عصر المماليك البحرية هم : الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون والاشرف شعبان ، وثلاثة فى عصر المماليك الجراكسة هم : الاشرف برسباى والأشرف قايتباى وقنصوه الغورى .

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٩ ، ١٠ .

فى عهد الظاهر بيبرس : (٦٥٨ — ٦٧٦ هـ/١٢٦٠ — ١٢٧٧ م)

كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بالاسكندرية من سلاطين المماليك البحرية ، فقد زارها أربع مرات ، وكان يترك فيها من الأثر كل مرة مانوه به المؤرخون وتناولوه بالذكر . وكانت زيارته الأولى للاسكندرية فى بداية سلطنته سنة ١٢٦٢ م . وقد روى ابن واصل خبر هذه الزيارة ، ووصفها ، ويعتبر وصفه غاية فى الأهمية ، لأنه كان مرافقاً للسلطان ، ويذكر ابن واصل أن أهل الاسكندرية احتفلوا بزيارة السلطان لمدينتهم احتفالا كبيرا ، وأنهم تلقوا بيبرس عند دخوله من باب رشيد بالسرور والفرح والدعاء ، وقضى بيبرس يومه يتفقد مهمات الثغر ، وأمر بكسوة الجامع الغربى ، وعمل قناديله وعمارته من ماله الخاص (١) ،وقام بيبرس بزيارة شيخان من كبار الزهاد والصوفية بالاسكندرية ، الأول الشيخ أبو القاسم بن منصور بن يحيى المالكى الاسكندرى المعروف بالقبارى ، أحد العباد المشهورين بكثرة الورع والتحرى والانقطاع (توفى فى ٦ شعبان سنة ٦٦٢ هـ عن ٧٥ سنة) (٢) ، فلما زاره بيبرس وحادثه ، نصحه الشيخ القبارى بضرورة تحصين الثغر وترميم أسواره ، ففعل ما نصحه به ، وأمر بترميم أسوار المدينة . والشيخ الثانى الذى زاره بيبرس هو أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الزاهد (توفى سنة ٦٧٢ هـ عن بضع وثمانين سنة) (٣) ، ولما زاره بيبرس سأله عن حوائجه فقال

---

(١) أنظر : جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، غرفة الإسكندرية التجارية ص ٩٧ ، الاسكندرية (مقال فى المجلة التاريخية المصرية) أكتوبر ١٩٤٩ ص ٢٣٠ . نقلا عن مخطوطة مفرج الكروب لابن واصل (نسخة باريس) .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٢٣ ، المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤١ .

الشيخ : " ليست لى حاجة لأن راتب السلطان علينا ، ونحن من نعمته فى إنعام تفضل علينا وعنا " (١) .

ثم زار بيبرس ثغر الاسكندرية للمرة الثانية عام ٦٦٤ هـ (أوائل عام ١٢٦٥ م) ، وفى هذه الزيارة ، أمر بازالة الرواسب الرملية التى أوشكت أن تطمر بعض أجزاء من ترعة الاسكندرية ما بين قرية النقيدى (قرب كوم حمادة) وفم الخليج ، وطهر الخليج مما كان يعوقه من رمال ، غير أن عمر طوسون يرى أنه طهر الترعة ما بين النقيدى وشابور ، كما طهر المرحلة ما بين ببيج ودمنهور ، ويستدل على ذلك من وجود قرية تسمى الضهرية وتصحيحها الظاهرية نسبة إليه ، بدلا من الاسم القديم منية بيبج ، كذلك يستند على أن ترعة الضاهر الحالية تحمل اسمه مما يدل على أنه أجرى فيها بعض الأعمال (٢) . وانتهز بيبرس فرصة وجوده بالاسكندرية وأخذ يتفقد حصونها .

ثم زارها للمرة الثالثة فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . وبينما كان يستولى على حصون الحشيشية بالشام لاعتراضها سبيل مشروعاته ضد الصليبيين وصلته الأخبار بتأهب الصليبين بقيادة لويس التاسع لغزو مصر ، فأسرع بالعودة إلى مصر ، وأمر بنصب مائة منجنيق على أسوار الاسكندرية ، لاستقبالهم بمثل ما استقبلهم به فى المنصورة ، غير أن الحملة التى كانت موجهة إلى مصر تحولت إلى تونس فى عهد المستنصر الحفصى ، فكتب إليه بعض أدباء دولة المستنصر :

أفرنسيس ، تونس أخت مصر .·. فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبر .·. وطوا شيك منكر ونكير

---

(١) الشيال : الاسكندرية فى العصرين الايوبى والمملوكى ص ٩٨ .

(٢) عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ١٩٤٢ ص ٢٣ — ٢٤ .

فقضى الله أن يموت فى حملته بتونس (١) .

أما زيارته الرابعة والأخيرة فتمت عام ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) ، وفيها رمم منار الاسكندرية وأصلحه، فقد ذكر السيوطى أن وجهها البحرى تداعى، وكذلك الرصيف الذى بين يديها من جهة البحر وكادا يتهدمان . وذكر الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال أنه أمر بانشاء مسجد بأعلى المنار مكان قبة كان قد أقامها هناك أحمد بن طولون ثم أسقطتها الرياح، غير أن السيوطى يذكر أن هذا المسجد أقيم مكان القبة فى أيام الملك الكامل، أى فى عصر الدولة الأيوبية (٢) .

فى عصر الناصر محمد بن قلاوون: (٦٩٣ — ٦٩٤ ، ٦٩٨ — ٧٠٨ ، ٧٠٩ — ٧٤١ هـ) .

تابع السلطان الناصر محمد سياسة الظاهر بيبرس فى العناية بثغر الإسكندرية، فقد حدث فى سنة ٧٠٢ هـ ، أى فى ولايته الثانية ، زلزال عنيف أصاب عدد كبير من آثار الثغر ، وأهمها منار الاسكندرية وسورها وحصونها ، وقد ذكر المقريزى أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجا . فكتب السلطان إلى والى الاسكندرية بعمارتها فعمرها . كذلك أمر بترميم ما تهدم من المنار (نحو ٤٠ شرفة) فرممه بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٣ هـ . ولكن يبدو أن الإصابة كانت بالغة بحيث لم تفده أعمال الترميم ، فسقط جانب منه، ويدل على ذلك ما ذكره ابن بطوطه فى رحلته سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م)

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٩ . شاهد ابن جبير هذا الجامع وصلى فيه (أنظر رحلة ابن جبير ص ٤١) . ولما كان ابن جبير قد زار مصر فى أيام صلاح الدين فلابد إذن أن يكون ما ذكره السيوطى نقلا عن صاحب مناهج الفكر بعيدا عن الحقيقة ، والأرجح أن يكون بيبرس قد أعاد بناء هذا الجامع بأعلى المنار بعد إصلاحه له .

إذ أشار إلى أنه رأى أحد جوانبه متهدما . ولما زاره بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩/١٣٥٠ م) ، رآه " قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود إلى بابه (١) " ويعلل ابن بطوطة سبب ما أصابه من إهمال بأن الملك الناصر " قد شرع فى بناء منار مثله بازائه ، فعاقه الموت عن إتمامه " (٢) وذكر السيوطى عن ابن فضل الله العمرى " أن هذه المنارة خربت وبقيت أثرا بلا عين ، وكان هذا وقع فى أيام قلاوون أو ولده " (٣) . ويعلق الأستاذ الدكتور جمال الشيال على ما ذكره ابن بطوطة بقوله : " ولهذا الوصف أهميته خاصة ، فهو يشير إلى معلم جديد من معالم المدينة وهو المنار الجديد الذى أنشىء بازاء المنار القديم — أى فى نهاية رأس لوكياس أو رأس السلسلة — وأن هذا المنار بدىء فى بنائه فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ،وأنه تم فى عهود من أتى بعده من السلاطين " (٤) أما المنار الذى شرع الناصر فى تشييده وتم فى العصور التالية (فى القرن الخامس عشر الميلادى) فهو المسمى بطابية السلسلة الحالية ، وكانت مقامة فى نهاية الصخور المتصلة برأس لوكياس(٥).وأهم ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الإسكندرية حفره لترعة جديدة هى خليج الاسكندرية أو الخليج الناصرى سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ،وذلك بعد أن طمرت الترعة القديمة بالرمال ، ونقل مخرجها من الضهرية (الظاهرية) إلى العطف قبالة فوه ، فأصبحت ترعة

---

(١) ابن بطوطة : الرحلة ص ١٠ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) السيوطى ج . ص ٣٩ .

(٤) جمال الدين الشيال : الاسكندرية (المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٣٣ .

(٥) عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ص ١٤٧ .

خليج الإسكندرية بذلك تمتد من العطف إلى كفر الحمايدة ، وهو نفس مجرى ترعة المحمودية ، ويشير المقريزى إلى أعمال الناصر بقوله : "ثم تعطل جريان الماء فيه بطول السنة ، وصار يحفر سريعا بعد شهرين أو نحوهما من دخول الماء إليه ، واحتاج أهل الاسكندرية فى طول السنة إلى الشرب من الصهاريج التى يخزن فيها الماء، إلى أن كانت سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م)، فقدم الأمير بدر الدين بكتوت الخزنداري المعروف بأمير شكار ، ومتولى الإسكندرية ، إلى قلعة الجبل ، وحسن للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حفره ، وذكر له ما فى ذلك من المنافع ، أولها حمل الغلال وأصناف المتجر إلى الإسكندرية ، وفى ذلك توفير للكلف ، وزيادة فى مال الديوان ، وثانيها عمارة ما على حافتى الخليج من الأراضى ، بانشاء الضياع والسواقى ، فينمو الخراج بهذا نموا سريعا ، وثالثها انتفاع الناس به فى عمارة بساتينهم وشرب مائه دائما . فأعجب السلطان ذلك، وندب الأمير بدر الدين محمد بن كند عدى ابن الوزيرى مع بكتوت لعمله . " (١) وتم حفر هذا الخليج بعد أن سخر له نحو ٤٠ ألف رجل ، ثم وصل مجراه بفرع رشيد ، فعظم به النفع ، واستغنى الناس عن استخدام الصهاريج ، وعمرت ضفتاه بالعمائر والمنيات ، فلم يمض وقت طويل حتى ازدادت مساحة الأراضى المزروعة ما يقرب من ١٠٠ ألف فدان ، وعمرت بذلك هذه المنطقة ، وأصبحت تضم ما يزيد على أربعين ضيعة (٢) .

فى عهد الأشرف شعبان بن حسن بن محمد بن قلاوون : (٧٦٤ — ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ — ١٣٧٦ م)

اتخذ الصليبيون بعد سقوط عكا وسواحل الشام فى أيدي المسلمين

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٧٦ ٢ ، ٢٧٧ .

(٢) نفس المرجع .



(شكل ٤) الاسكندرية فى عصر دولة المماليك الجراكسة (أوائل القرن ١٧ م.)

سنه ١٢٩١،من جزيرة قبرص قاعدة لاعتداءاتهم على سواحل مصر والشام ، وقامت بحكم قبرص أسرة لوزتيان المشهورة . واتفق حكمها لقبرص فى العصر الذى توفى فيه محمد بن قلاوون ، وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده الأطفال ، فاستبد بشؤون الدولة جماعة من كبار أمراء المماليك ، وقام النزاع بين هؤلاء من أجل الاستئثار بالسلطة ، وشغلهم هذا الصراع عن العناية بشئون الدولة . ولما تولى بطرس الأول (١) لوزتيان حكم قبرص (١٣٥٠ ١٣٦٩ م) ،عمد الى إستغلال الضعف والانحلال الذى وصلت إليه مصر فى ذلك الوقت ، وكان بطرس هذا من أشد ملوك الصليبيين تعصبا وكانت حماسته الصليبية الفائقة مثلا رائعا للفارس المتدين فى أوربا فى العصور الوسطى ، إذ جعل بطرس من نفسه بطلا مدافعا عن المسيحية وفكرة الصليبية (٢) ، وذلك بمحاربة المسلمين ، وعلى الأخص المماليك الذين أخرجوا الصليبيين من الشام،وهزموا التتار ، وأصبحت لهم قوة تعمل لها أوربا حسابا كبيرا ، وقبل أن يقدم على مهاجمة المماليك،طاف بدول أوربا طالبا معونتها ومؤازرتها أدبيا وماديا . وفى سنة ٧٦٧ ه (١٣٦٥ م) أعد بطرس عدته لغزو الإسكندرية ، التى اختارها بالذات لأهميتها الاقتصادية والجغرافية، وكان سلطان مصر فى ذلك الوقت هو السلطان الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان بن السلطان حسن (٧٦٤ — ١٣٦٣/٧٧٨ — ١٣٧٦ م) وكان طفلا فى الحادية عشرة من عمره ،وكانت السلطة الفعلية فى يد الأمير يلبغا الخاصكى ، الذى ارتكب من الفظائع وضروب العسف الاستبداد ما أشاع الفوضى فى

---

(١) يسميه محمد بن قاسم بن محمد النويرى الاسكندرى صاحب كتاب «الالمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية» سنة ٧٦٧ ه « باسم « ربيربطرس صاحب قبرس » (أنظر مقال مسيو كومب) .

E. Combe: Le texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan, Bulletin of the Faculty of Arts of Alex. vol. I, 1946, p. 99

(٢) سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٢ .

البلاد وأصبحت القاهرة مسرحا للمعارك ومرتعا للفساد (١) . ولم تكن الاسكندرية أحسن حالا من القاهرة ، إذ كان حاكمها الأمير صلاح الدين خليل بن عرام متغيبا عن المدينة، يؤدى فريضة الحج، وكان ينوب عنه فى حكم المدينة أمير آخر ، أقل دراية منه فى الإدارة، سىء التدبير عديم المعرفة " .

وقدمت حملة بطرس دى لوزنيان إلى مياه الاسكندرية فى ٢١ محرم سنة ٧٦٧ هـ (٨ أكتوبر سنة ١٣٦٥ م)، وظن أهل الاسكندرية فى أول الأمر أن السفن الصليبية هى سفن البنادقة الآتية للتجارة على عادتها كل سنة (٢) . فلم يدركوا إلا بعد فوات الأوان أنها حملة صليبية ، فحاولوا إغلاق أبواب المدينة، وحشد أبراج الأسوار بالمقاتلة ، ولكن القبارصة اقتحموا الأبواب، وتدفقوا على المدينة، فاستولوا عليها ، وفر جنغرا ومن معه من الجند إلى دمنهور، وأطلق القبارصة فى المدينة يد السلب والنهب، وانتهكوا الحرمات، وقتلوا الناس وأحرقوا الدور والقصور والفنادق ، واعتدوا على النساء اعتداءات فاضحة، وسلبوا المدينة وجردوها من روائعها، ونقلوا كل ذلك إلى سفنهم، وأسروا عدداً كبيراً من السكان (٥ آلاف أسير) ، وأبحروا بعد أربعة أيام من نزولهم بالاسكندرية، إذ وصلتهم الأنباء بقدوم جيش المماليك بقيادة يلبغا الخاصكى (٣) .

---

(١) وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، ١٩٢٤ ص ١٠٦ — سعيد عاشور : المرجع السابق ص ٧٢ — جمال الشيال: الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ١٠٠ ، الاسكندرية (المجلة التاريخية) ص ٢٣٥ .

(٢) سعيد عاشور ص ٧٣ .

(٣) مر مؤرخو مصر فى عصر المماليك على هذه الحادثة مرا سريعاً فلم يذكروا تفصيلاتها. ويرجع الفضل الأول فى وصف واقعة الاسكندرية إلى محمد بن قاسم بن محمد النويرى الذى شرع فى تصنيف كتابه (الالمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام ...) فى جمادى الآخر سنة ٧٦٧ وأتمه فى ذى الحجة سنة ٧٧٥ هـ . وقد نشر الأستاذ كومب بعض منتخبات من هذا الكتاب (فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية المجلد الثالث سنة ١٩٤٦) كما بحث هذا الموضوع فى مقال عنوانه :
Les Sultans Mamloûks Ashraf Shabân (764-778) e Ghauri (1906-922) àAlexandrie, Bulletin de la Socié ét Royale d'Archeologie d'Alex., fasc. 30-31, 1936-1937.

=

أحس السلطان الأشرف شعبان بضرورة تحصين المدينة ، والعناية بها وبشئونها ، بعد أن أصبحت مطمع الصليبيين ، وكانت غزوة القبارصة تجربة قاسية مريرة لم ينسها المماليك ، وازدادت أهمية الاسكندرية فى أنظارهم . وأول ما عمله الأشرف شعبان فى هذا السبيل ، أن حول ولايتها إلى نيابة أى أن يقوم بشؤونها نائب عنه ينفرد بحكمها ، ويكرس جهوده لتحصينها ، والإشراف على دفاعها ، وأصبح هذا النائب يختار من بين الأمراء المقدمين .

وهكذا أصبحت الاسكندرية وما يليها إقليما مستقلا يحكمه نائب ، له من من السلطات ما يماثل سلطات نواب سورية ودمشق وحلب ، ويعتبر فى نفس الوقت صورة مصغرة من السلطان إذ كان يرأس باسمه الحفلات الرسمية التى تتسم بكل مظاهر الترف التى تفرضها القواعد الرسمية . وكان النائب حين يخرج من المدينة من باب البحر فى موكب رسمى يشبه السلطان حين يخرج من القلعة ، وكان يصحبه عند خروجه مماليكه وأجناد الحلقة والأمراء والشبابة السلطانية بين يديه ، وكان موكبه يبدأ من دار النيابة (القصر) ويخرج من باب البحر ، ويسير خارج المدينة قدر ساعة ، ثم يعود من نفس الطريق إلى دار النيابة . وإذا كان فى هذا الموكب سماط وضع الكرسى فى صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ، ووضع عليه سيف نمجاة (خنجر مقوس يشبه السيف) سلطانية ، ومد السماط تحته ، وأكل مماليك

= هذا والكتاب ما يزال مخطوطا حتى يومنا هذا . ويذكر الدكتور جمال الشيال أن له أربعة نسخ مخطوطة إحداها فى مكتبة برلين تحت رقم ٩٨١٥ ونسخة ثانية تتضمن الجزء الثانى محفوظة فى دار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٤٢ والجزء الأول تحت رقم ٤١٩٣ وسخة ثالثة تشتمل على الجزء الأول فى خزانة بانكى فور بالهند تحت رقم ٢٣٣٥ ، والرابعة فى المتحف البريطانى بعنوان « مرآة العجائب فى وقاية الاسكندرية » تحت رقم ٦٠٦ . (أنظر جمال الشيال : الاسكندرية المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٠٨ .

النائب وأجناد المئين ، وجلس النائب بجنبة من الإيوان ، والشباك مطل على مينا البلد، ويجلس القاضي المالكي عن يمينه، والقاضي الحنفي عن يساره، والناظر تحته، والموقع (١) بين يديه، ورؤس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص (٢) فيقرؤها الموقع على النائب فيفصلها، بحضرة القاضي، ثم ينصرف الموكب "(٣). وهكذا اكتسبت الاسكندرية أهمية فوق أهميتها ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية لمصر . واهتم نائبها باصلاح ما تخرب من منشآتها بسبب غزوة القبارصة ، فرمم الأسوار ، وأعاد تنظيم المدينة مدنيا وحربيا ، وقوى حامية المدينة ، وزاد في عددها وزودها ، بأحدث معدات الدفاع كالمدافع (٤) .

وبالغ السلطان الأشرف شعبان في عنايته بالإسكندرية، فرأى أن يزورها بعد أن قارب سن البلوغ . فى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨/١٣٦٩ م) زار السلطان الاسكندرية وتفقد تحصيناتها وأسوارها وخندقها . ولقد احتفظ لنا النويرى بوصف رائع لهذه الزيارة وهو وصف تفصيلي يتضمن بيانات قيمة عن طبوغرافية المدينة وأهم منشآتها فى ذلك الوقت ، فيذكر أن السلطان دخل المدينة من باب رشيد ، وسار فى المحجة العظمى مارا بأحياء المدينة إلى باب البحر المقابل للميناء الشرقية، وفى طريقه داخل المدينة، مر بمسجد أبى الأشهب وعطف عطفتة، فمر على دار ابن الحباب ، ومنها إلى جفار القصارين ، إلى

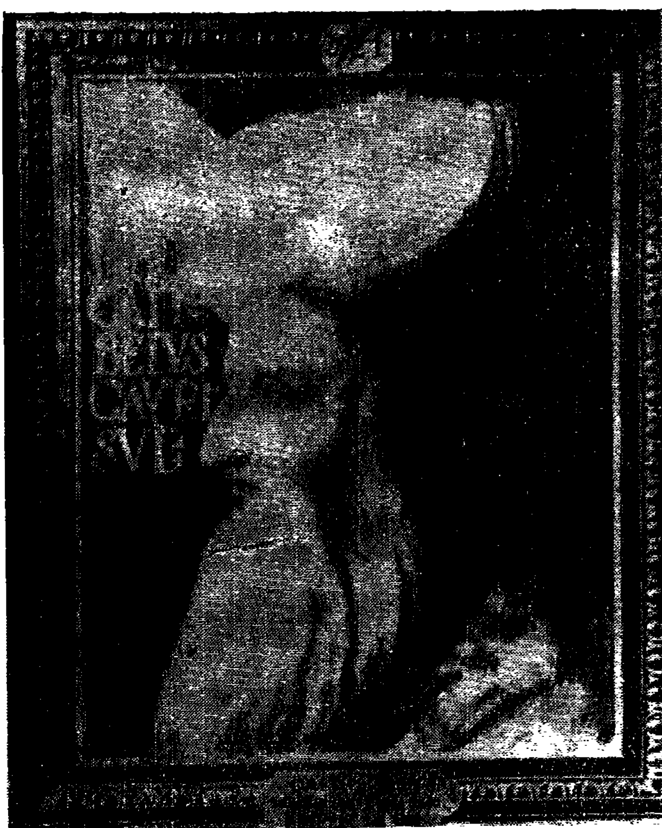
---

(١) هو كاتب السر. وكان يشرف على كتاب الدواوين الذين يستنيرون بآرائه ومشورته ، وسمى كذلك لأنه كان يكتم سر السلطان ، وكان يلقب أيضا بلقب صاحب ديوان الانشاء أو ناظر الانشاء الشريف . وكانت وظيفته من أعظم الوظائف الديوانية ، أما الناظر فالمقصود به المشرف على أموال الديوان، وكان يطلق عليه إسم ناظر خاص وكان يساعده « مستوفى الخاص » .

(٢) الشكايات .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٤ ، ٦٣ .

(٤) جمال الدين الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ١٠١



(شكل ٥) السلطان قايتباى

الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث، فشاهد البحر المالح والمينة بها مراكب الفرنج، ثم سار إلى دار العدل ، ودار الطراز (١) . ولا شك أن هذه المعلومات التى أمدنا بها النويرى عن تاريخ الاسكندرية وتخطيطها ذات قيمة كبيرة ، وسنعالج موضوع تخطيطها فى عصر المماليك فى بداية الفصل التالى .

فى عصر الأشرف برسباى : (٨٢٥ — ١٤٢/٢٨٤١ — ١٤٣٨ م)

نالت الاسكندرية نصيبا وافرا من عناية سلاطين المماليك الجراكسة ، وأولهم الناصر فرج بن برقوق الذى زارها فى ١٨ شوال سنة ٨١٤هـ (١٤١١ م)، فأوكب بها موكبا حافلا ، وحملت القبة والطير على رأسه، وذكروا أنه لما شق من مدينة الاسكندرية وقف له بعض التجار المغاربة بقصة يشكون فيها من جور القباض ، فلما اطلع على تلك الشكاية أمر بابطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة، واقتصر فى الرسوم على العشر (٢) . غير أن هذه السياسة لم يقدر لها أن تستمر فى أيام برسباى ، فقد فرض رسوما إضافية بجانب العشر، واحتكر تجارة التوابل .

ويقترن اسم الأشرف برسباى باسم خليج الاسكندرية الجديد ، فقد ظل الخليج الناصرى يقوم بوظيفته حتى عام ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م ثم انقطع الماء منه، وصار لا يدخل إليه إلا فى أيام الفيضان فقط ، ثم يجف عند انخفاض مياه النيل ، ولذلك تحولت كثير من البساتين التى كانت تحيط بالاسكندرية إلى أراض قفراء ، كما خربت كثير من القرى التى كانت تحف بضفتى الخليج . فلما كانت أيام الأشرف برسباى ، انتدب لحفره الأمير جرباش

---

(١) النويرى : الالمام بالاعلام بما جرت به الأحكام ج ٢ ، والمرجع السابق .

(٢) ابن إياس ج ٢ ص ١٧٣ ، ج ٤ ص ٤٢٦ — جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ١٠٤ .

الكريمى المعروف بعاشق ، فتوجه إليه فى حشد من العمال بلغ عددهم نحو ٨٧٥ رجلا ، فشرع فى حفره فى ١١ جمادى الأولى سنة ٨٢٦ هـ (٢٢ إبريل سنة ١٤٢٣ م)،واستمر العمل فيه زهاء تسعين يوما،وتم حفره فى ١١ شعبان سنة ٨٢٦ (١) هـ (٢٠ يولية سنة ١٤٢٣ م) وسميت الترعة الجديدة باسم الاشرفية تيمنا باسم هذا السلطان (٢) .

فى عصر الأشرف قايتباى : (٧٨٢—٩٠١ هـ / ١٤٦٧— ١٤٩٦ م)

كان عهد الأشرف قايتباى من أحسن عهود مصر وأكثرها ازدهارا فى عصر المماليك . وحظيت الاسكندرية بعناية هذا السلطان واهتمامه ، فلقد زارها سنة ٨٨٢ هـ (١٤٧٧ م (واحتفلت المدينة باستقباله احتفالا رائعا وصفه المؤرخ ابن إياس. وقد ذكرنا نص هذا الاحتفال فى الملحق الذى ذيلنا به الكتاب . وفى هذه الزيارة أمر قايتباى ببناء برج فى الموضع الذى كان يقوم عليه منار الاسكندرية . وشرع فى بناء هذا البرج على أساس المنار القديم،فى نفس هذا العام،وتم بناؤه بعد سنتين ، وعندئذ قدم قايتباى إلى الإسكندرية للمرة الثانية لمشاهدته بعد بنائه سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩ م) . وكان هذا البرج يتضمن مسجدا جامعا وطاحونا وفرنا وحواصل شحنها بالسلاح ، ومكاحل معمرة بالمدافع (٣) . .

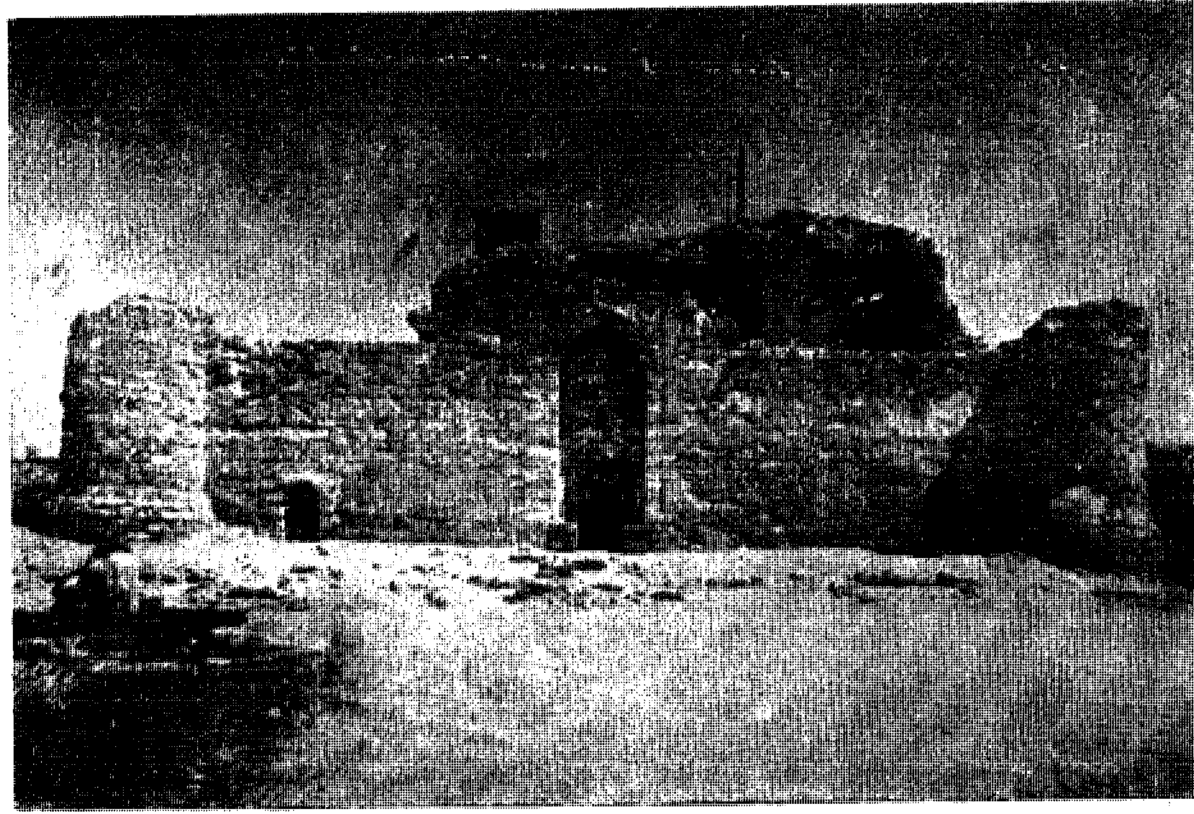
ويرجع سبب اهتمام الأشرف قايتباى بتحصين الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر (٤) إلى اضطراب العلاقات بين مصر وبين الدولة العثمانية ،

(١) القريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٨ .

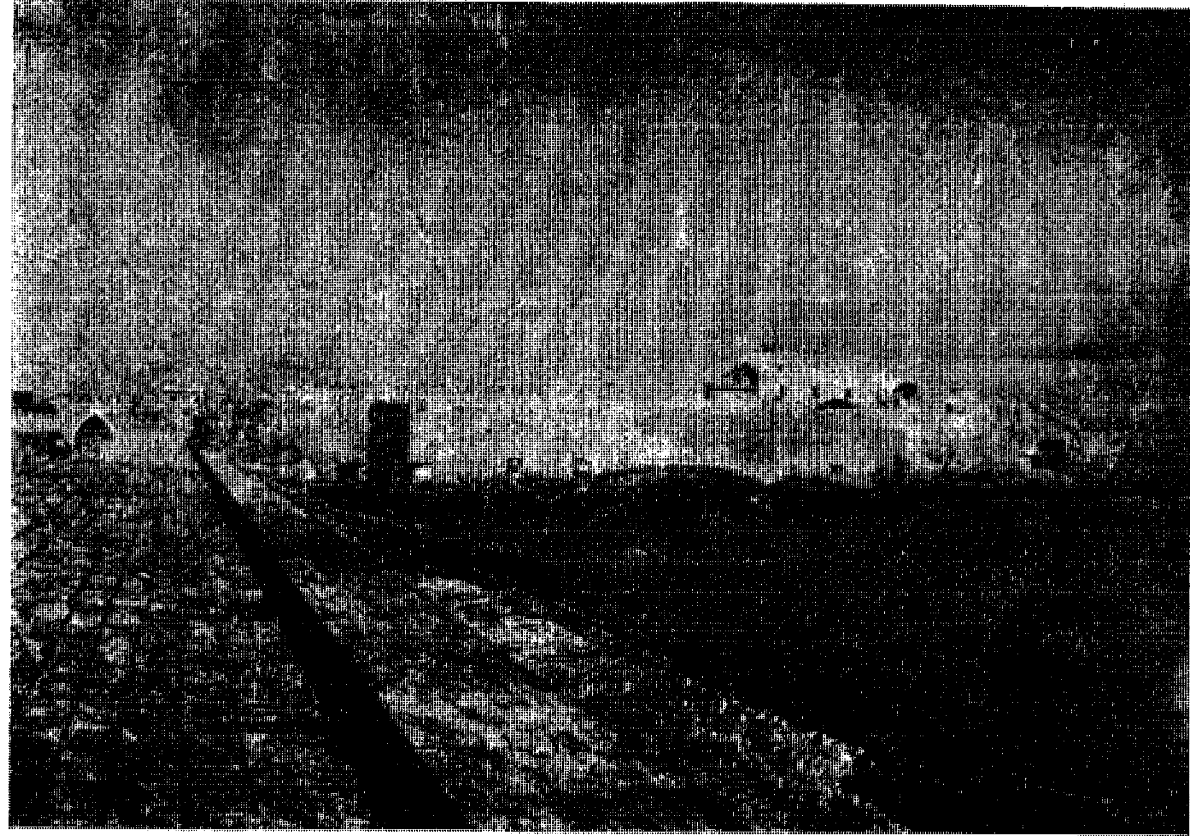
(٢) عمر طوسون : خليج الاسكندرية ص ٢٩ .

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ١٥٠ — ١٥٣ ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٤) لم تكن الاسكندرية وحدها هى البلد الذى زوده قايتباى بتحصيناته ، فقد ذكر ابن إياس فى بدائع الزهور أنه أقام برجا آخر فى رشيد ، تم بناؤه فى نفس العام الذى بنى فيه برج قايتباى بالاسكندرية (ابن إياس ج ٣ ص ١٥١ ، ١٥٢).—



(شكل ٦) قلعة قايتباى قبل الترميم



(شكل ٧) منظر جانبي لقلعة قايتباي

التى ظهرت قوتها فى ذلك الوقت ، خاصة بعدأن فتح محمد الثانى القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فى عهد السلطان إينال ، وأصبحت الدولة العثمانية على هذا النحو منافسا خطيرا لدولة المماليك . وكانت علاقات المودة المتبادلة بين قايتباى ومحمد الثانى قناعا زائفا يخفى وراءه حقيقة هذه العلاقات من تغاير وتحاسد وتربص كل منهابالأخرى (١) . وكان قايتباى يدرك تماما ما يجول بخاطر خصومه الأتراك وكان واثقاً من تربصهم بدولته وانتظارهم لفرصة مواتية يثبون فيها على بلاده ، عاجلا كان ذلك أو آجلا ، فعمد بادىء ذى بدء إلى تحصين ثغوره المعرضة للغزو العثمانى من جهة البحر مثل الاسكندرية ورشيد ودمياط ، ثم أخذ يترقب الأحداث . فلما تولى بايزيد الثانى العرش بعد أبيه محمد الفاتح (١٤٨١ — ١٥١٢ م)،ظهر العداء سافرا بين الدولتين، خاصة بعد أن تنازع بايزيد مع أخيه جم من أجل العرش ، والتجأ جم إلى قايتباى الذى احتفل به فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ احتفالا عظيما ، وزوده بالمال اللازم والجند ليحصل على حقه فى العرش بحد السيف . وغادر جم القاهرة فى عام ١٤٨٢ فى طريقه لغزو آسيا الصغرى ولكنه هزم واضطر إلى الالتجاء إلىفرسان الاسبتارية برودس فى ٢٩ يوليو سنة ١٤٨٢(٢)، وبدأ النزاع بين الدولة العثمانية ودولة المماليك يأخذ صورة مصادمات مسلحة .

=وما زالت بقايا قلعة رشيد قائمة حتى وقتناهذا.ونلاحظ أن ثغر رشيد ظهرتأهميته منذ عهد قايتباى وازدادت هذه الأهمية فى أيام قانصوه الغورى . ويذكر ابن إياس أيضا أن السلطان الغورى لما خشى غزوة العثمانيين ذهب بنفسه للتفتيش على حصون الاسكندرية ورشيد وكان ذلك فى يوم الأربعاء الموافق ٢ رمضان عام ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) «وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شاطىء البحر الملح فأرسل عدة بنائين وحجارين بسبب ذلك» ح ٤ ص ٤٧٤ ، ٨٧٦ .

(١) أحمد السيد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال فى المجلة التاريخية المصرية ١٩٥٩ ص ٢٠٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢١٥ ، إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٦٨ .

فى عصر السلطان قانصوه الغورى : (٩٠٦ — ٩٢٢هـ / ١٥٠١— ١٥١٦ م) .

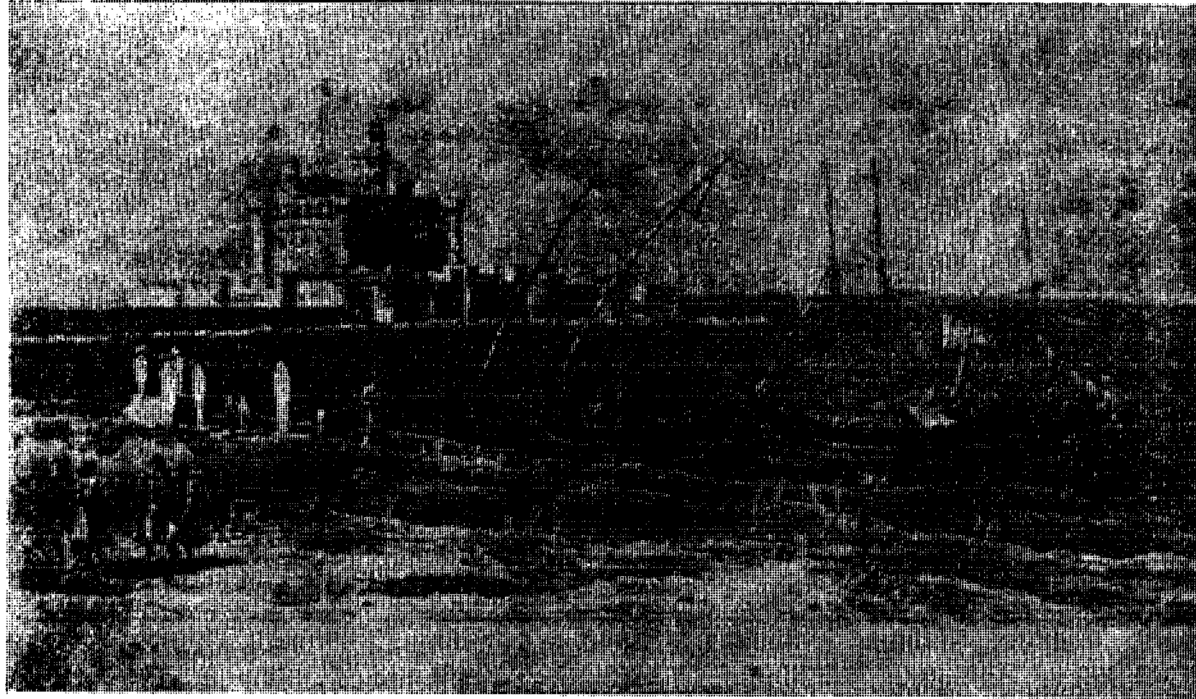
ظلت الإسكندرية مدينة مزدهرة فى أيام سلاطين المماليك الجراكسة لأنها كانت تسيطر على الطريق التجارى بين الشرق والغرب حتى نجح البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح ورابطت سفنهم بقيادة فاسكو دى جاما عند مدخل البحر الأحمر لمنع السفن المصرية من العبور إلى الهند ، وكان هذا الاكتشاف ضربة قوية أصابت كيان الاقتصاد المصرى ، وخسرت مصر خسائر فادحة نتيجة لتحكم البرتغال فى الطريق التجارى القديم الذى يربط مصر بالهند (١) .

ولا شك أن الإسكندرية عانت من جراء ذلك وفقدت نضارتها القديمة ، وتحولت بساتينها الخضراء إلى أراض قفراء ، ويصفها بدرو مارتير ، سفير الملكين الكاثوليكيين إلى السلطان قانصوه الغورى سنة ١٥٠١ م بقوله : " يا للأسف ! ! إن المدينة التى تألقت فى أيام البطالمة وكانت فى أحد الأيام أجمل وأعظم وأكثر البلاد عمرانا ، هذه المدينة تخربت ، وعليها ذرفت الدموع ، فقد أصبحت فى أكثرها صحراء . فياله من منظر يثير الحزن ، وأسفاه عليك يا اسكندرية ! ما أعظم أسوارها ! وما أفسح طرقاتها ! وماأشدها كآبة . وما أروع بيوتها التى ترتفع إلى السماء ! ! وما أضخم عقود أبوابها ! وعند مرورنا بداخل الدور وجدناها تحولت إلى أتربة وأنقاض ، وفسروا لنا سبب هذا الخراب الزائد ، فنسبه بعضهم إلى انتشار الأوبئة (٢) وعلله

---

(١) فييت : المواصلات فى مصر ص ٤١ ، إبراهيم طرخان ص ٢٩١ — ٢٩٥ .

(٢) انتشرت الطواعين والأوبئة فى عهد الأشرف برسباى سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) وفى عهد السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وفى عهد الأشرف قايتباى سنة ٨٨٣ ، ٨٨١ ، ٨٩٧ هـ .(أنظر إبراهم طرخان:=



(شكل ٨) قلعة قايتباى أيام الحملة الفرنسية وترى الجبانة القديمة الواقعة بين المينائين القديم والجديد



(شكل ٩) السلطان قانصوه الغورى

بعضهم بكثرة الحروب وثورات الأهالى (١) ، بينما أرجع آخرون السبب الأساسى فى هذا الخراب إلى تعسف السلاطين واستبداد نوابهم فى المدينة ... فان جميع السلاطين الذين يتولون السلطة كانوا ينهبون أهالى الاسكندرية، فانها كانت — باستثناء دمشق — المركز التجارى لجميع بلاد السلطان، ومستودع البضائع والسلع ، لذلك كانوا يسلخونهم كما لو كانوا غنما ، فاذا ما بلغ الوشاة والمخبرين خبرا عن تاجر مثر أخرجوا منه المال بقوة التعذيب ، بدون أدنى عذر سوى رغبتهم فى مصادرة ماله ، ولذلك كله كم كان يرتجف التجار وبعض الأهالى المياسير ليلا ونهارا خوفا على حياتهم بسبب ثرواتهم التى يمتلكونها . . " (٢) .

ولم يكن هذا السفير وحده الذى شهد بما وصلت إليه الاسكندرية من واضمحلال ، فهذا ابن إياس المؤرخ المصرى يصف لنا ما أصاب الاسكندرية من خراب عندما زارها السلطان الغورى فى ذى الحجة سنة ٩٢٠ ﻫ (١٥١٤م) فيقول : " . . . فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الإسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب . . . ولم يكن بثغر الإسكندرية

= مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥)ويعلل المقريزى هذه الأوبئة بقلة مياه النيل وارتفاع الأسعار (إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٤١) .

(١) يذكر ابن بطوطة أن أهالى الاسكندرية ثاروا على واليها أيام الناصر محمد لأنه كان يتحيز للروم ضد المسلمين فحاصروا قصره ، فبعث الناصر لنجدته أميرا يعرف بالجمالى ثم أتبعه بالأمير طوغان فدخلا الاسكندرية « وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كأولاد الكويك وسواهم وأخذا منهم الأموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ، ثم أن الأميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا . . . » (ص ١٥) . ويذكر لين بول أن الصيادين الاسكندريين قاموا بثورة كبرى ضد نائب الاسكندرية أيام المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١ م) أنظر Lane-Poole ص ٣٢٧

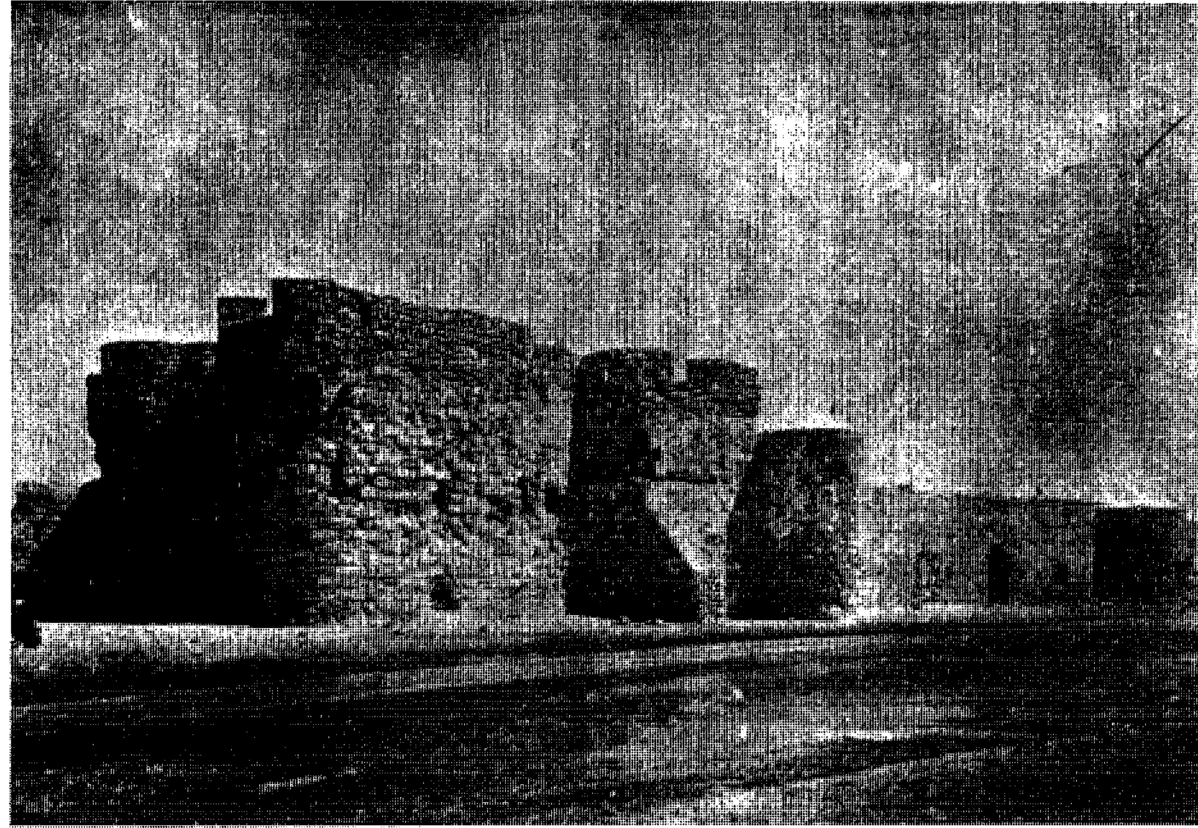
(٢) Pedro Martir: Una Embajada de los Reyes Catolicos a Egipto, traduccion de L. Garcia, valladolid, 1947, pp. 78-80.

يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض فانهم صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل : وطلب الخبز بها فلم يوجد ، ولا الأكل . ووجد بها بعض دكاكين مفتحة ، والبقية خراب لم تفتح " (١) .

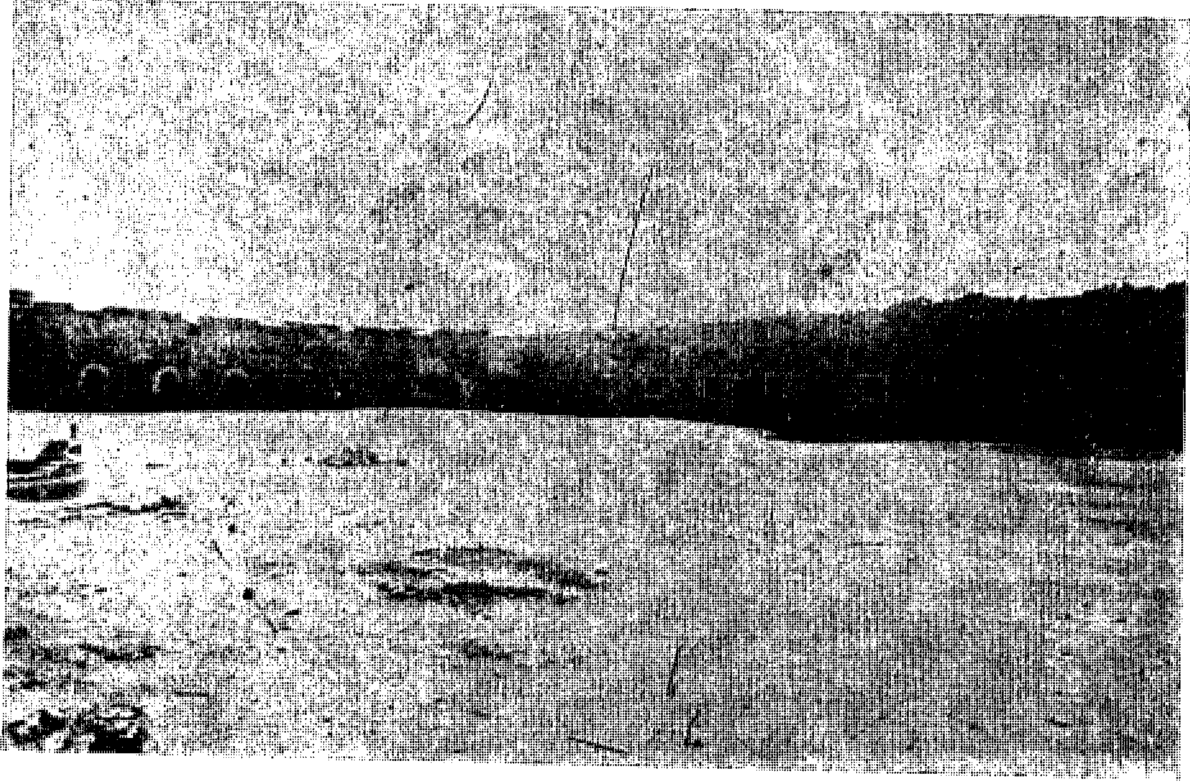
وبالرغم من هذا التدهور الاقتصادى الذى أصاب الاسكندرية فى هذا العصر ، بحيث أنها أوشكت على الاحتضار ، فقد أزمع السلطان قانصوه الغورى على زيارتها فى جمادى الآخرة سنة ٩١٦ هـ (سبتمبر ١٥١٠ م) ، ليتفقد أبراجها ، ويصلح تحصيناتها ، خوفا من طروق الافرنج لثغر الاسكندرية ، غير أن الأتابكى قرقماش أثناه عن الرحيل بحجة صعوبة السفر برا بسبب امتلاء الطرقات بالوحل الناشىء من مياه النيل . فعدل السلطان عن ذلك ، وسافر قرقماش بالنيابة عنه إلى الثغر ، فى صحبته الأمير علان الدوادار (٢) ثم رحل السلطان الغورى لزيارة الاسكندرية فى ذى القعدة سنة سنة ٩٢٠ هـ ، وعاد فى ٢٨ من نفس الشهر (٣) ، بعد أن أقام فيها يومين اثنين (٤) .

وكانت العلاقات قد ساءت إلى درجة كبيرة بين دولة المماليك وبين الدولة العثمانية ، خاصة بعد أن تحالف السلطان الغورى مع الشاه الصفوى ، وآوى الأمير قاسم العثمانى ، أحد أبناء الأمير أحمد الذى قتله سليم ، واتخذ منه الغورى أداة للتهديد (٥) . ويذكر ابن إياس أنه لما رجع جانم الخاصكى إلى

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٤٢٤ .
(٢) ابن إياس ج ٤ ص ١٩٣ .
(٣) ابن إياس ج ٤ ص ٤١٧ .
(٤) نفس المرجع ص ٤٢٥ .
(٥) إبراهم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١٧٥ .



(شكل ١٠) منظر جانبي لقلعة قايتباي



(شكل ١١) قلعة قايتباى من الداخل

مصر بعد أن أسره الأتراك ، وأوشكوا على قتله ، أخبر الغورى " عن ابن عثمان أمور شنيعة قالها فى حق السلطان ، وعسكر مصر ، وأنه جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر ، تجىء إلى ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرق من عسكره تجىء من على البلاد الحلبية "(١). عندئذ قوى عزم السلطان الغ رى على السفر إلى ثغرى الاسكندرية ورشيد ، ليتفقد أحوال الابراج والتحصينات بها ، فسافر فى ٢ رمضان سنة ٩٢١ هـ (١٥١٥ م) للمرة الثانية ، وهناك أنعم السلطان على خايربيك العلاى "الشهير بالمعمار متقدمة ألف وجعله متحدثا فى باشية برج الأشرف قايتباى "(٢) وعاد السلطان إلى القاهرة فى ١٥ رمضان من هذه السنة .

(١) ابن إياس ج ٤ ص ٤٧١ .

(٢) نفس المرجع ص ٤٧٦ .

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية فى العصر الاسلامى

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية فى العصر الاسلامى

أولا ـ التخطيط والعمران :

المدن الاسلامية نوعان : نوع أسسه المسلمون إما تمكينا للمصالح الاقتصادية ، وإما رغبة فى تدعيم النظام الدفاعى ، أو لجعلها قواعد إسلامية ومراكز لإشعاع الحضارة الاسلامية ، أو لتكون أرباضا يستريح فيها الملوك والسلاطين ويلهون ، بعيدا عن أنظار الرعية . والنوع الثانى يشتمل على المراكز العمرانية السابقة على الفتح الاسلامى ، التى استقر فيها الفاتحون العرب ، واتخذوها حواضر لهم لماضيها المجيد ، وعمرانها المتطور ، أو لاقتصادها الناهض ، ثم تحولت هذه المراكز العمرانية بمرور الزمن إلى مدن إسلامية ، بعد أن اصطبغت بالصبغة الاسلامية (١) . وتعتبر مدينة الاسكندرية من هذا النوع الأخير .

ولقد رأينا من العرض التاريخى السابق كيف عدل المسلمون عن اتخاذ الاسكندرية عاصمة لمصر الاسلامية ، رغم الأخائذ التى يمكن أن تغنيهم عن بناء منازل أخرى ، وكيف تعرضت الاسكندرية للغزو البيزنطى سنة ٢٥ هـ ولما يمض على فتحها ثلاثة سنوات ، وكيف نجح عمرو فى طردهم من المدينة ، واضطر أخيرا إلى أن يقوم بهدم الأجزاء الجنوبية والغربية من

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٢٩ .

أسوار المدينة ، حتى يتيسر للمسلمين إخضاع المدينة ودخولها بسهولة فى حالة غزو الأعداء لها من البحر (١) .

ولا شك أن الاسكندرية اضمحلت منذ ذلك الحين ، فانكمشت رقعتها عما كانت عليه فى أيامها القديمة . ثم أعيد بناء أسوار الإسكندرية فى عصر أحمد بن طولون ، ولكن هذه الأسوار الإسلامية الجديدة لم تطوق المدينة القديمة ، وإنما اقتصرت كما ذكرنا من قبل على إحاطة المناطق المأهولة بالسكان فحسب ، وأخرج من السور منطقتان كبيرتان ، هما : المنطقة الشرقية —وكانت تضم مقابر اليونان والرومان — والمنطقة الجنوبية وكانت تضم بعض المزارع وأطلال معبد السيرابيوم ، وغير ذلك من أطلال أبنية رومانية يشرف عليها عمود السوارى . وهكذا تقلصت رقعة المدينة ، وفتحت فيها أبواب جديدة : ففى الشرق فتح باب سمى بباب رشيد ، وفى الغرب فتح باب يسمى باب القرافة ، وفى الجنوب فتح باب سمى باب السدرة بسبب شجرة ضخمة من أشجار السدر كانت مزروعة بجانبه ، كما سمى أيضا بباب العمود لاشرافه على عمود السوارى . أما الباب الشمالى فظل كما كان فى العصر البطلمى والرومانى ، وعرف بباب البحر ، وكان يشرف على الميناء الشرقية .

وظلت الأسكندرية تحتفظ من حيث التخطيط بنظامها اليونانى الرومانى . وتميزت شوارعها بالنظام المتعامد ، وكان يخترقها من الشرق إلى الغرب

---

(١) أثبتت الحوادث التاريخية أن الأسوار عقبة كأداء فى سبيل استرداد المدينة ، ولقد هدم عبد الرحمن الناصر أسوار إشبيلية لاعتصام الثوار بها وذلك فى سنة ٣٠١ ﻫ (أنظر الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ٢٠) . كذلك هدم عبد المؤمن ابن على أسوار مدينة فاس سنة ٥٤٠ ﻫ بعد حصاره الطويل لها ودخلها وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا » فلم تزل مدينة فاس لا سور لها حتى بناه حفيده المنصور وأتمه محمد الناصر سنة ٦٠٠ ﻫ. أنظر ابن أبى زرع : روض القرطاس ج ١ ص ١٢٣ (ط . تورنبرج ، اسبال ١٨٤٣ — ١٨٤٦) ، السلاوى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٤٣ .

الاسكندرية فى عصر المماليك

قلعة قايتباى
برج الناصر محمد
الميناء الشرقية
الميناء الغربية
دار الصناعة
باب البحر
مسجد الطرطوشى
حفار القصارين
المسلة
رباط الواسطى
دار النيابة
القصبة
جامع
مسجد ذى القرنين
جامع المؤتمن
مسجد أبى الأنبوب
الرمل
باب رشيد
العمرى
رباط الهكارى
قصر السلاح
الجامع الغربى
الباب الأخضر
القرافة
باب السدرة
جامع السوارى
عمود السوارى
السريبة
خليج الاسكندرية
بساتين ومزارع

(شكل ١٢) الاسكندرية فى عصر السلطان الملك الأشرف شعبان من سلاطين المماليك البحرية

طريق فسيح كان يعرف باسم المحجة العظمى ، على نحو ما كان متبعا فى المدن السابقة على الاسلام ، مثل قرطبة(١) ، وإشبيلية ، وسرقسطه فى الأندلس ، ومثل المدن الاسلامية التى تأثرت بالنظام البيزنطى ، كالمهدية ، والقاهرة ، وكان يقطعها طريق فسيح من الشمال إلى الجنوب يعرف بشارع ما بين القصرين .

ولا نعرف عن المدينة فى العصر الطولونى سوى أسماء مساجدها وقد ذكرناها آنفا ، وأهمها مسجد سليمان ، والمسجد الأخضر ، ومسجد ذى القرنين ، ومسجد عمرو بن العاص ، ومسجد موسى . كما نعرف إسم حى من أحيائها هو القصبة (٢) وآخر اسمه العادلية (٣) . أما الآثار القديمة التى كانت تزدان بها مدينة الاسكندرية مثل عمود السوارى فقد أصبحت فى ظاهر المدينة وخارجها نظرا لانكماش رقعة المدينة ، وظل هذا العمود فى ظاهر المدينة فى عصر المماليك ، وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك (٤) ، كما لاحظه غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (٥) .

ولم يتغير تخطيط المدينة فى العصر الفاطمى عما كان عليه فى العصر السابق ، وكل ما فى الأمر أنه أضيفت إلى الآثار السابقة آثار أخرى ، أقيمت فى العصر الفاطمى ، مثل جامع العطارين ، وجامع الطرطوشى الذى

---

(١) الحميرى ص ٥٦ .

(٢) السيوطى ج ١ ص ٣٧ : نلاحظ أن إسم القصبة هذا كان يطلق على المدينة نفسها أى الجزء الأوسط الذى يحيط بالمسجد الجامع أو جامع عمرو (وكان يعرف أيضا باسم جامع الألف عمود أو الجامع الغربى) .

(٣) أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠٦ .ويذكر النويرى إسم ربضين أحدهما يسمى الرمل غرب الاسكندرية والآخر يسمى السرية فى جنوبها الغربى . كما ذكر موضعا يعرف بالقصرين .

(٤) السيوطى ج ٤ ص ٣٧ — ابن بطوطة ص ١١ .

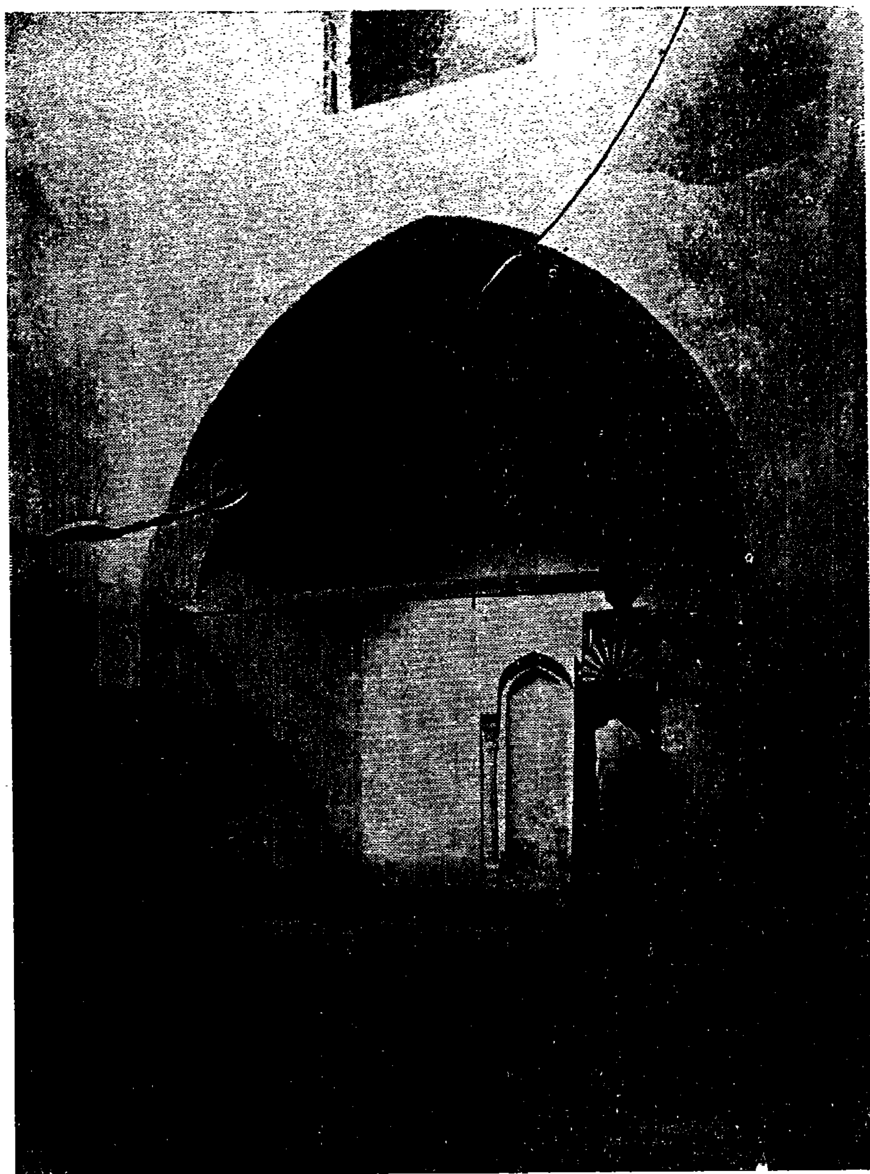
(٥) خليل شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

الذى أقيم خارج باب البحر ، وجامع المؤتمن الذى شيد فى المحجة العظمى ، ومدرستا ابن الوخشى وابن السلار . وأضيف إلى هذه الأبنية أبنية أخرى فى العصر الأيوبى مثل المدرسة التى أقامها صلاح الدين ووصفها ابن جبير .

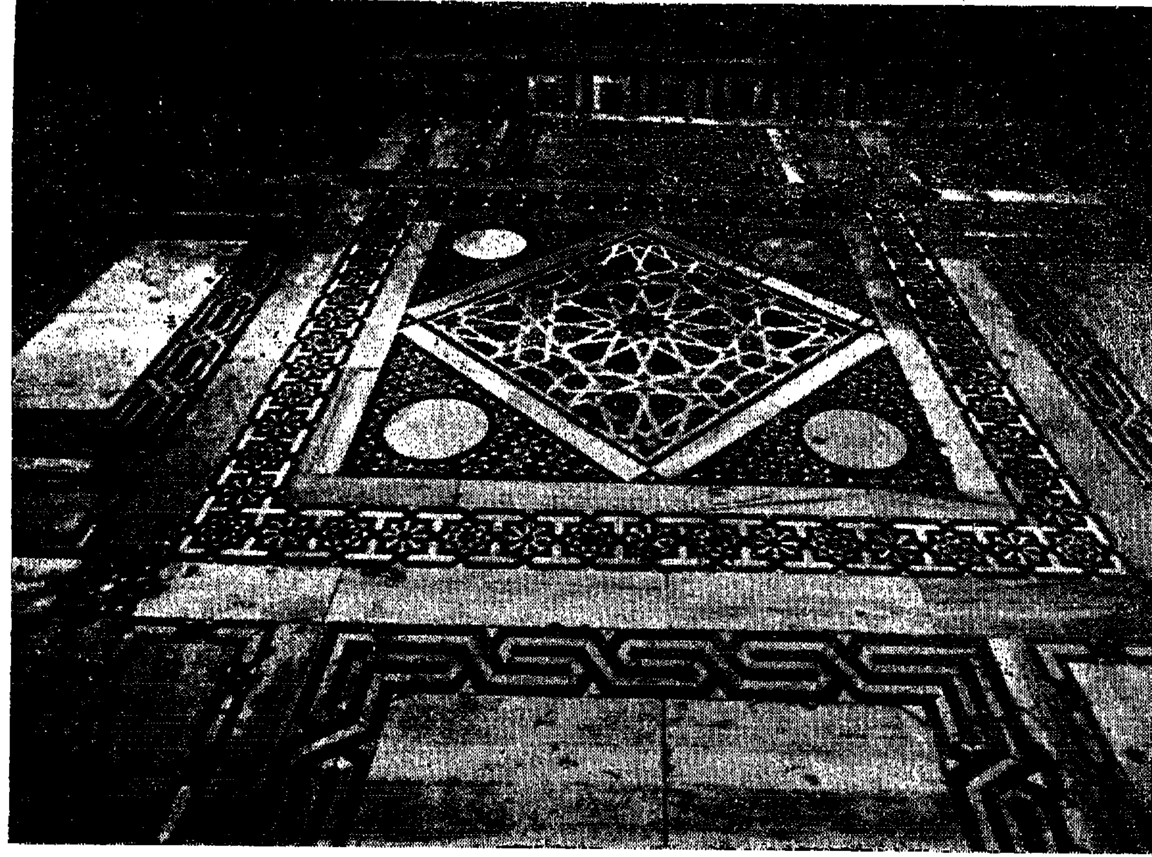
ونستدل من وصف النويرى لموكب السلطان الأشرف شعبان ، أن الاسكندرية عمرت فى عصر المماليك بالأبنية الرائعة أمثال مسجد أبى الأشهب ، بالقرب من باب رشيد ، ودار ابن الحباب ، فى المحجة العظمى ، وجفار القصارين (حيث تقصر الثياب) ، والصادر (أى المخازن الجمركية) ، وكانا يقعان بالقرب من باب البحر تجاه الميناء الشرقية . كذلك ذكر النويرى أن السلطان خرج من باب البحر ،وسار خارج المدينة قدر ساعة ؛أى أنه سار فى طريق الكورنيش الحالى المؤدى إلى الميناء الغربية. وذكر أيضا أنه مر بعد خروجه من باب البحر بدار الطراز ، ودار العدل،ودار الصناعة . أما قصر السلاح فكان يقع بالقرب من الباب الأخضر غربى المدينة . وكان سور المدينة قد ازدوج فى عصر المماليك،فاننا نستنتج من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان،أن السور كان مزدوجا أى أنه كان يتألف من سورين: سور أساسى ، وسور أمامى،على نحو ما كان شائعا فى العمارة البيزنطية والعمارة الاسلامية فى الأندلس (١) . غير أن الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال يستنتج من نص النويرى أن هذه الأسوار كانت ثلاثة يفصل كل منها فصيل ، أى طريق فاصل ، وذلك لأن الأشرف شعبان وفقاً لرواية النويرى خرج من باب البحر الذى يلى البلد ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ، ثم الثالث (٢) . ولا شك أن هذا الاستنتاج منطقى سليم لولا أننا نعتمد أيضا على

(١) المساجد والقصور فى الأندلس ص ١٣٤ وما يليها .

(٢) جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والملوكى ص ١٠٣ ، الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها ص ٢٣٩ .



(شكل ١٣) ايوان الصلاة بمسجد قلعة قايتباى



(شكل ١٤) أرضية مسجد قلعة قايتباى بالاسكندرية

النصوص التاريخية . فقد ذكر غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى نائب الاسكندرية فى عهد برسباى فى كتابه " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك " ما يلى عن ثغر الاسكندرية " وهو أجل ثغور الإسلام وأعظمه يشتمل على سورين محكمين بها عدة أبراج ، يحيط بها خندق يطلق فيه الماء من البحر المحيط عند وقت الضرورة ، وللثغر عدة أبواب محكمة حتى أن على كل الباب منها ثلاثة أبواب من حديد " (١) .

وهذا النص صريح لا يحتاج إلى تفسير ، والمشكلة التى تحتاج إلى تفسير هى مشكلة الأبواب الثلاثة للباب الواحد . فلقد عرفنا من أسوار القاهرة أن للباب بابين تفصلهما رحبة أو اسطوان ، وتعلوه قبوة كبيرة ، كما هو ممثل فى أبواب الفتوح والنصر وزويلة . فاذا أضفنا بابا ثالثا للسور الأمامى ، أصبح للباب الواحد ثلاثة أبواب . ومن أمثلة هذه الأبواب الثلاثية ، باب قرطبة بمدينة إشبيلية (٢) . فهو يتألف من بابين فى السور الأساسى وباب واحد فى السور الأمامى الذى كان أقل إرتفاعا عن السور الأساسى ، ووظيفة السور الأمامى ، أنه يمنع العدو المهاجم من هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة . وأعتقد أن أسوار الاسكندرية فى عصر المماليك كانت من هذا النوع ، وأعتقد كذلك أن بناء هذه الأسوار كان متأثرا بالأسوار الاسلامية فى المغرب والأندلس ، فلقد تغلغلت التأثيرات المعمارية المغربية فى صميم العمارة المصرية فى هذا العصر ، بسبب كثرة وفود الأندلسيين الذين حكم عليهم بمغادرة بلادهم بعد سقوطها فى أيدى الاسبان ، وبسبب

---

(١) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك نشره Paul Ravaisse باريس ١٨٩٤ ص ٣٩ .

(٢) J. Guerrero Lovillo: La Puerta de Cordoba en la Cerca de Sevilla, al — Andalus, 1953.

كثرة تردد التجار المغاربة إلى مصر (١) . ويمكننا أن نشهد السورين فى خريطة للاسكندرية فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى (سنة ١٦١٩ م) فالسور الشمالى من أسوارها جميعا يبدو فى الصورة مؤلفا من سورين : أحدهما أكثر ارتفاعا من الآخر . كذلك يمكننا أن نميز ازدواج السور الشمالى فى خريطة للاسكندرية ترجع إلى سنة ١٦٨٦ م .

وكان ينفتح فى أسوار الاسكندرية أربعة أبواب وفقاً لما ذكره ابن بطوطة ، إذ يقول " ولمدينة الإسكندرية أربعة أبواب : باب السدرة (٢) ، وإليه يشرع طريق المغرب ، وباب رشيد (٣) ، وباب البحر ، والباب الأخضر (٤) ،وليس يفتح إلا يوم الجمعة ، فيخرج الناس منه إلى زيارة القبور " (٥) وكان يحيط السور الشمالى من جهة البحر خندق ، وكذلك كان يحيط السور الغربى عند الباب الأخضر خندق آخر (٦) . وكانت تدعم الأسوار أبراج مربعة الشكل ، وبأعلى الأبراج مجانيق ومكاحل ، وعلى كل برج أعلام ، وطبلخاناه ، وأبواق ، وأجراس (٧) . وكان يخترق الثغر خليج ممتد يأتى من النيل ويصب فى البحر غربى المدينة (٨) . وكان

(١) عبد العزيز سالم : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة العدد ١٢ ص ٨٨ .

(٢) كان يعرف أيضا باسم باب العمود وباب البهار .

(٣) هذا الباب كان يعرف أيضا باسم باب القاهرة وباب شرق وآثاره مازالت قائمة عند ملعب البلدية .

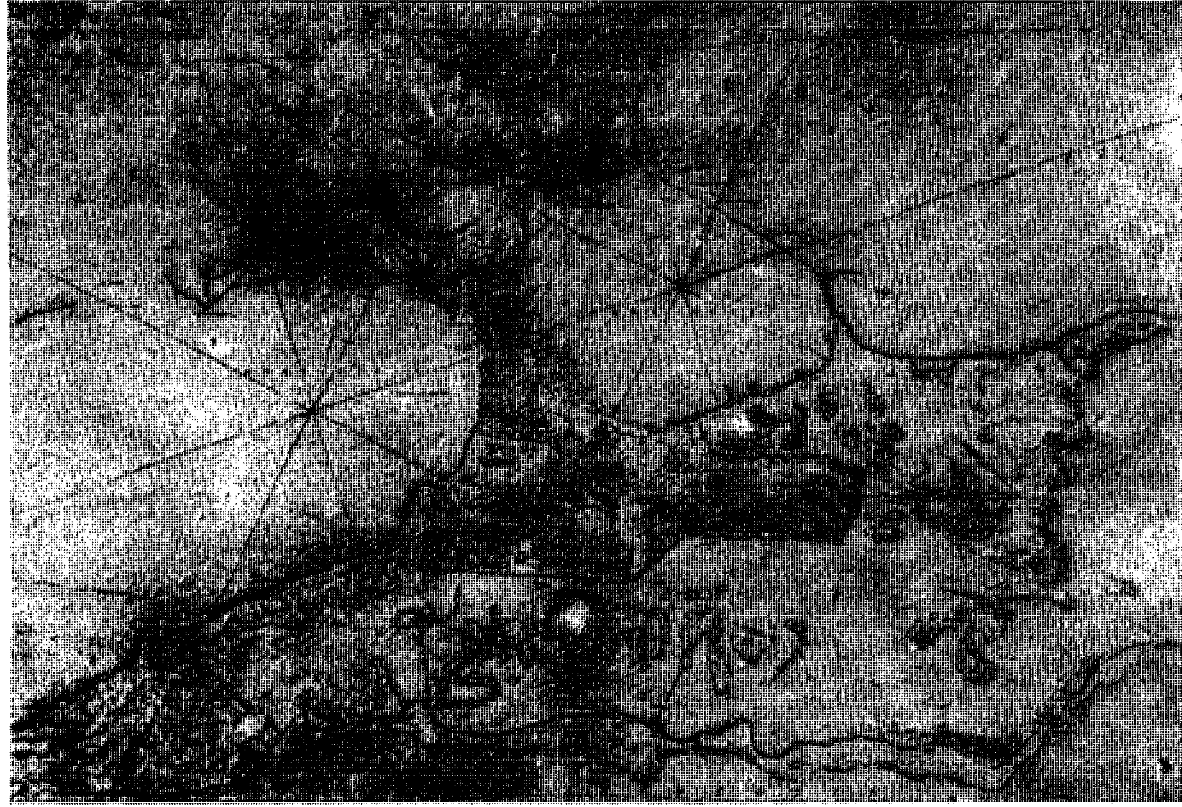
(٤) كان يؤدى إلى القرافة الغربية ولذلك سمى أيضا باب القرافة أو الباب الغربى .

(٥) ابن بطوطة ، الرحلة ص ١٠ . ذكر ابن إياس أنه كان من المعتاد أن السلطان إذا دخل مدينة الاسكندرية فك أبواب المدينة وتلقى إلى الأرض حتى رحيله (أنظر ج ٣ ص ١٢٧) .

(٦) النويرى : الالمام بالأعلام ، خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٣٩ .

(٧) خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٤٠ .

(٨) نفس المرجع ص ٤٠ .



(شكل ١٥) مدينة الاسكندرية بعد الحملة الفرنسية

يتفرع من هذا الخليج شبكة مائية فى باطن الأرض ، تروى الدور والبساتين (١) . وكان بخارج باب البحر فضاء فسيح يمتد حتى رأس السلسلة حيث تقوم قلعة صغيرة كان قد أقامها الناصر محمد بن قلاوون ، وفى هذا الفضاء كانت تنصب له الخيام على ساحل البحر (٢) . وفى هذا الفضاء كان السلطان الأشرف قايتباى يلعب بالكرة مع أمراء المماليك (٣) . وكانت شرافات السور تعلق منها قناديل ، وذلك فى المناسبات الجليلة ، عندما يزور السلطان ثغر الاسكندرية (٤) .

وكان يحوط المدينة من الشرق والجنوب الشرقى بساتين نضرة ، ومزارع خضراء ، ولكن هذه البساتين لم تلبث أن تحولت إلى خرائب فى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى . ولما استولى الأتراك العثمانيون على الاسكندرية انكمشت وتقلصت ، واقتصر عمرانها على الرصيف الممتد بين الشاطىء وجزيرة فاروس القديمة ، وكانت هذه المنطقة أيضا من أرباض المدينة حتى أواخر القرن الثامن الهجرى ، فأصبحت فى العصر العثمانى المدينة التركية الجديدة ، أما القصبة القديمة فسميت منذ ذلك الحين بالمدينة العربية ، وأصبحت هذه المدينة لا تعدو أطلالا ودورا مهجورة تنتثر بين البساتين والحقول (٥) .

* * *

أما العمائر التى أقيمت بالاسكندرية فى عصر المماليك فكثيرة متعددة ، بعضها دينى ، وبعضها حربى ، وبعضها مدنى . ولنتناول أهم هذه العمائر بالدراسة :

(١) ابن جبير ص ٤١ .
(٢) ابن إياس ج ٣ ص ١٢٧ .
(٣) نفس المرجع ص ١٢٨ .
(٤) خليل بن شاهين الظاهرى ص ٤٠ ، ابن إياس ج ٤ ص ٤٢٥ .
(٥) جمال الشيال: الاسكندرية (المجلة التاريخية المصرية) ص ٢٤٢ ، ٢٤٤ .

(١) العمارة الدينية

نقصد بالعمارة الدينية ، العمار التى تغلب عليها الروح الدينية ، أو روح الجهاد الدينى ، مثل المساجد والمدارس ، والحدائق ، والأربطة ، والزوايا .

وأهم المساجد التى أقيمت فى عصر المماليك مسجد أبى العباس المرسى (١) ، الذى أقيم خارج باب البحر بجوار ضريح أبو العباس سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م) من مال كبير تجار الاسكندرية وقتئذ ، الشيخ زين الدين بن القطن . وكان للمسجد مئذنة مربعة الشكل (٢) . ويذكر صاحب الخطط التوفيقية أنه كان فى الأصل مسجدا صغيرا ، " وفى سنة ١١٨٩ هـ جدد فيه بعض المغاربة القاصدين الحج جزأه الذى يلى القبلة المنصورة والقبة ، ثم أخذ نظاره فى تجديده وتوسعته شيئا فشيئا بأخذ قطعة من المقابر وبعض من المنازل التابعة لوقفه ، وجعلت ميضأته فيما هدم من تلك المنازل ، حتى صار إلى ما هو عليه الآن من السعة والمتانة والمنظر الحسن " (٣) . ثم جدد هذا المسجد سنة ١٢٨٠ هـ ، وفى عهد الملك السابق فؤاد أنشىء مسجد جديد لأبى العباس ، وأنشىء أمامه ميدان فسيح يسمى ميدان المساجد ، ليشرف عليه المساجد الخمسة المحيطة به ، وهى مسجد أبى العباس ، ومسجد البوصيرى ، ومسجد ياقوت العرش (٤).

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الأنصارى المرسى العارف الشهير ، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى (السيوطى ج ١ ص ٢٢٤) وقال الصفدى فى الوافى ، أنه « وارث شيخه الشاذلى تصوفا ، الأشعرى معتقدا » (أنظر نفح الطيب ج ٢ ص ٣٩٠). وذكروا أنه توفى بالاسكندرية فى سنة ٦٨٦ هـ ولأهل الاسكندرية فيه عقيدة كبيرة ودفن فى قبره المعروف بالجبانة القديمة إزاء رباط الشاطبي خارج باب البحر من ظاهر الاسكندرية البحرى بمحرس سوار (جمال الشيال: الاسكندرية ص ٢٢٩) .

(٢) الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٣) على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ج ٧ ص ٦٩ .

(٤) الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٠ .



(شكل ١٦) مسجد تربانة بالاسكندرية

رباط الواسطي :

يقع هذا الرباط شرقي مسجد أبي العباس المرسي ، وقد جدد ، وفقد معالمه القديمة ، وأصبح الآن لا يعدو زاوية صغيرة ، في جهتها القبلية قبة صغيرة ، يتوسطها قبران ، أمام الشرقي منها لوح رخامي مكتوب فيه " بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على النبي ، كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة — الآية — توفى الشيخ السعيد الأمين المفضل المرتضى أطكين شهاب الدين أبو على منصور بن الشيخ السعيد الأمين أبو الفتوح نصر بن الشيخ أبي الفضل جعفر الواسطي القاضي العدل . ليلة الجمعة رابع شهر شعبان الشريف سنة اثنتين وسبعين وستمائة — رحمه الله تعالى ونور ضريحه " (١) .

رباط سوار :

أقام به الزاهد نزيل الاسكندرية ، أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، المتوفى سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) ، أحد أولياء الله ، وصاحب الكرامات المشهورة (٢) ، ولا نعرف على وجه الدقة موقع هذا الرباط وإن كنا نعلم أنه يقع خارج باب البحر .

---

(١) حسن عبد الوهاب : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب سنة ١٩٤٧ ص ٣٩٣ جمال الشيال : المرجع السابق ص ٢٢٨ .

(٢) ولد بشاطبة سنة ٥٨٥ هـ وقرأ القرآن ببلده القراءات السبع على أبي عبد الله محمد بن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطي وسمع عليه الحديث كما سمع بدمشق على أبي القاسم بن صصرى وأبي المعالي بن خضر وأبي الوفاء بن عبد الحق وغيرهم ونزل الاسكندرية وانقطع لعبادة الله في رباط سوار من الاسكندرية بتربة أبي العباس الراسي وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٧٢ ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته (نفح الطيب ج ٢ ص ٣٤١) .

رباط الهكارى :

أنشأه محمد بن الأمير زين الدين أبى المفاخر باخل بن عبد الله الهكارى الاسكندرى ، متولى ثغر الاسكندرية ، وكان أديبا عالما ، توفى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) ودفن عند رباطه خارج باب رشيد (١) .

دار الحديث التكريتية :

أنشأ هذه المدرسة عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن رشيد الربعى التكريتى ، نزيل الاسكندرية ، وتقع اليوم بشارع البلقطرية قسم الجمرك ، وجعلها لدراسة الحديث والفقه على مذهب الامام الشافعى ، وقد جددت هذه المدرسة ، وحولت إلى زاوية صغيرة فى القرن الثانى عشر الهجرى . وتحتفظ هذه المدرسة اليوم باللوحة التأسيسية ونصها : (بسم الله الرحمن الرحيم إن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ، أوقف هذا المسجد المبارك ودار الحديث العبد الراجى رحمة ربه عبد اللطيف بن رشيد التكريتى لتلاوة الكتاب العزيز وقراءة الأحاديث النبوية وطلب العلم الشريف على مذهب الإمام أبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى رحمة الله عليه فى شهر المحرم سنة ثمان وسبعين وستمائة . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه) وكانت فى الاسكندرية دار أخرى للحديث هى دار الحديث النبيهية ، كان يقوم بالتدريس فيها إبراهيم بن أحمد بن عبد المحسن الغرافى الاسكندرى المتوفى سنة ٧٠٤ هـ (٢) .

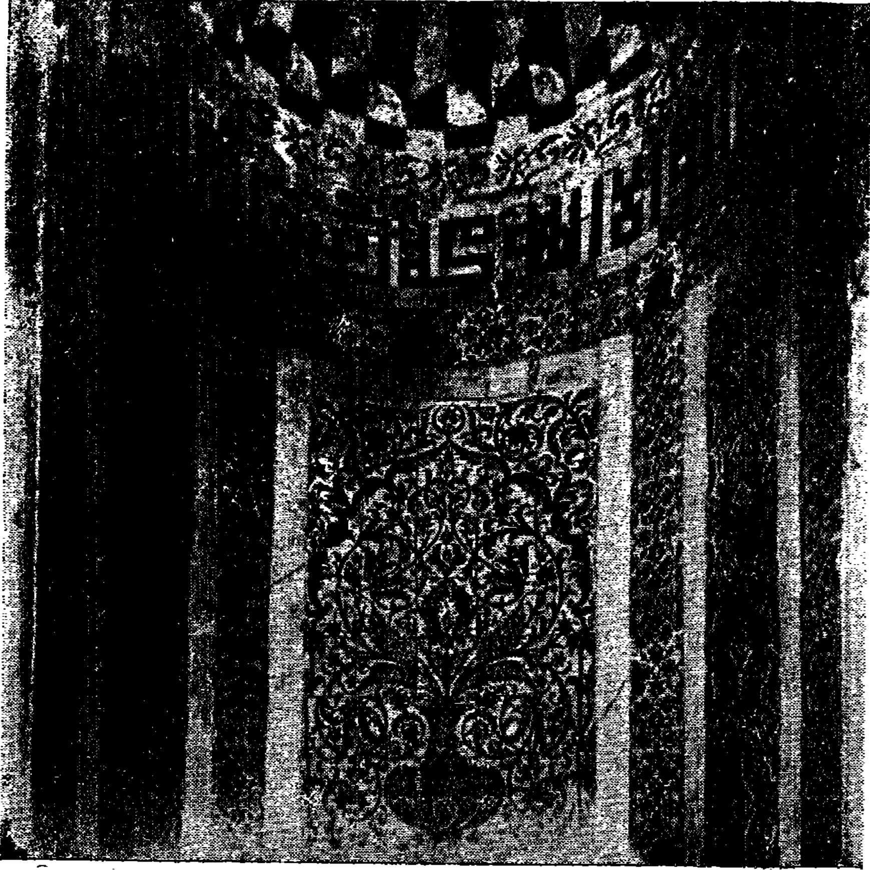
ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق ذكره من العمائر الدينية بعض المساجد التى أقيمت لصق أضرحة : الشيخ ياقوت بن عبد الله الحبشى المعروف

---

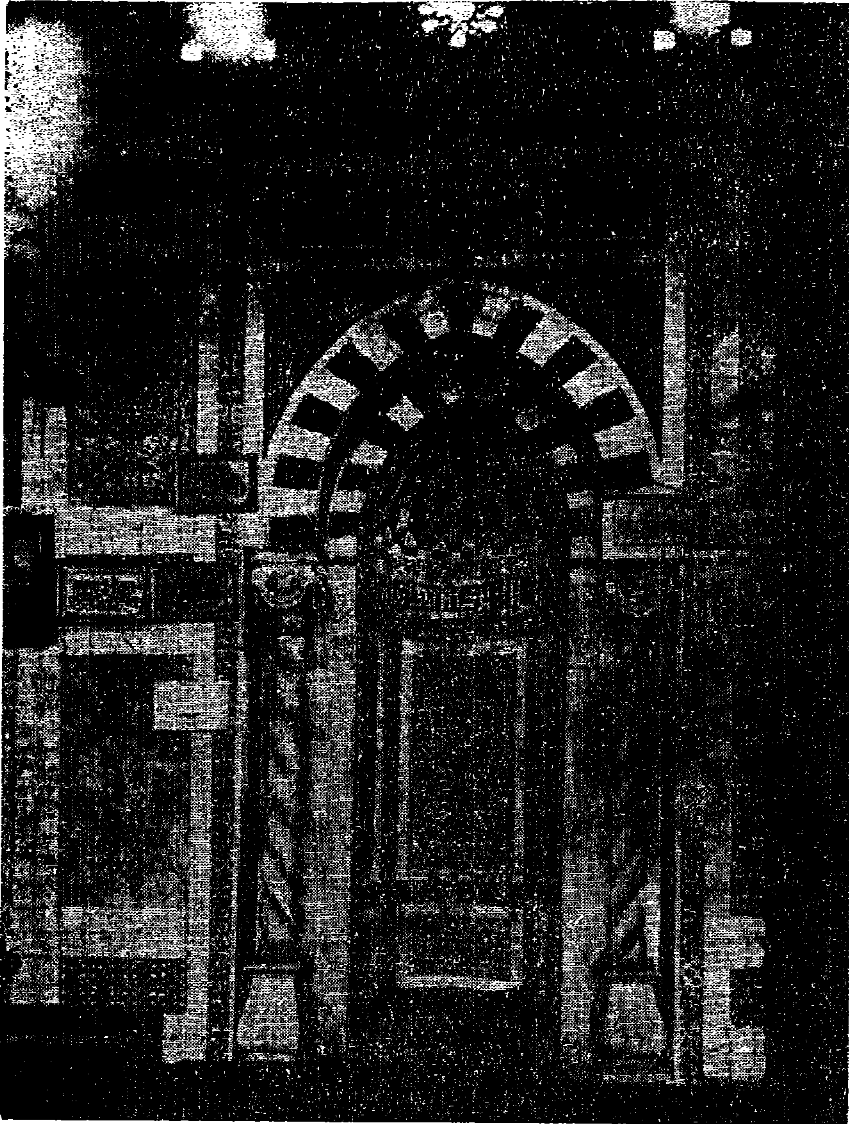
(١) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٩٣ ، جمال الشيال : المرجع السابق ص ٢٢٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٣) نفس المرجع .



(شكل ١٧) زخارف المحراب بجامع جوربجي



(شكل ١٨) محراب مسجد جوربجي



(شكل ١٩) مدخل مسجد ياقوت العرش

باسم ياقوت العرش ، تلميذ أبي العباس المرسى (توفى سنة ٧٣٢ هـ ودفن بجوار قبر أستاذه) ، والشيخ تاج الدين عطاء الله ، أبو العباس أحمد بن عبد الكريم الجذامى الاسكندرى المتوفى بالقاهرة سنة ٧٠٧ هـ ومسجده بالاسكندرية ، والشيخ شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدلاصى المولد ، المغربى الأصل ، البوصيرى المنشأ ، صاحب البردة والهمزية (ولد بدلاص سنة ٦٠٨ هـ وتوفى فى ٦٩٥ هـ) . ويلاحظ أنه يحيط بجامع أبي العباس المرسى أربعة مساجد ، تطل جميعا على ميدان يسمى ميدان الجوامع هى : جامع سيدى البوصيرى ، وجامع سيدى أبي الفتح ، وجامع سيدى ياقوت العرش ، وجامع سيدى نصر الدين . وكانت هذه المنطقة تؤلف جبانة تقع خارج باب البحر ، إزاء رباط الشاطبي المعروف برباط سوار . ويضيف غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى إلى هذه العمائر الدينية إسم مدرسة بقال لها مدرسة الكويك ، كان صاحبها من أعظم تجار الثغر (١) ، ولعل هذا التاجر أحد أعقاب أسرة الكويك المشهورة التى ذكرها ابن بطوطة عند زيارته لمصر ، وقال أنه لما ثار الناس وتجار المسلمين على والى الاسكندرية سنة ٧٢٧ هـ ، بعث الناصر لنجدته أميران ، هما الجمالى وطوغان " فقبضا على كبار أهلها ، وأعيان التجار بها ، كأولاد الكويك وسواهم " (٢) .

وقبل أن ننتقل إلى دراسة العمارة المدنية ، ينبغى أن نشير إلى مسجدين فى المدينة التركية أسسا فى العصر العثمانى ، أحدهما مسجد الحاج إبراهيم تربانة الذى أسس فى سنة ١٦٨٥ م ، والثانى مسجد عبد الباقى جوربجى الذى أنشىء سنة ١٧٥٨ م فى الحى التركى أو حى الجمرك ، وهو المنطقة التى عمرت بعد الفتح العثمانى ، وفيها تجتمع بعض آثار العثمانيين مثل سوق ووكالة جوربجى (٣) .

---

(١) ابن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

(٢) ابن بطوطة : ص ١٥ .

(٣) حسن عبد الوهاب : المساجد الأثرية ج ١ ص ٣٢٨ — ٣٣٠ .

(ب) العمارة المدنية :

١ — القصور :

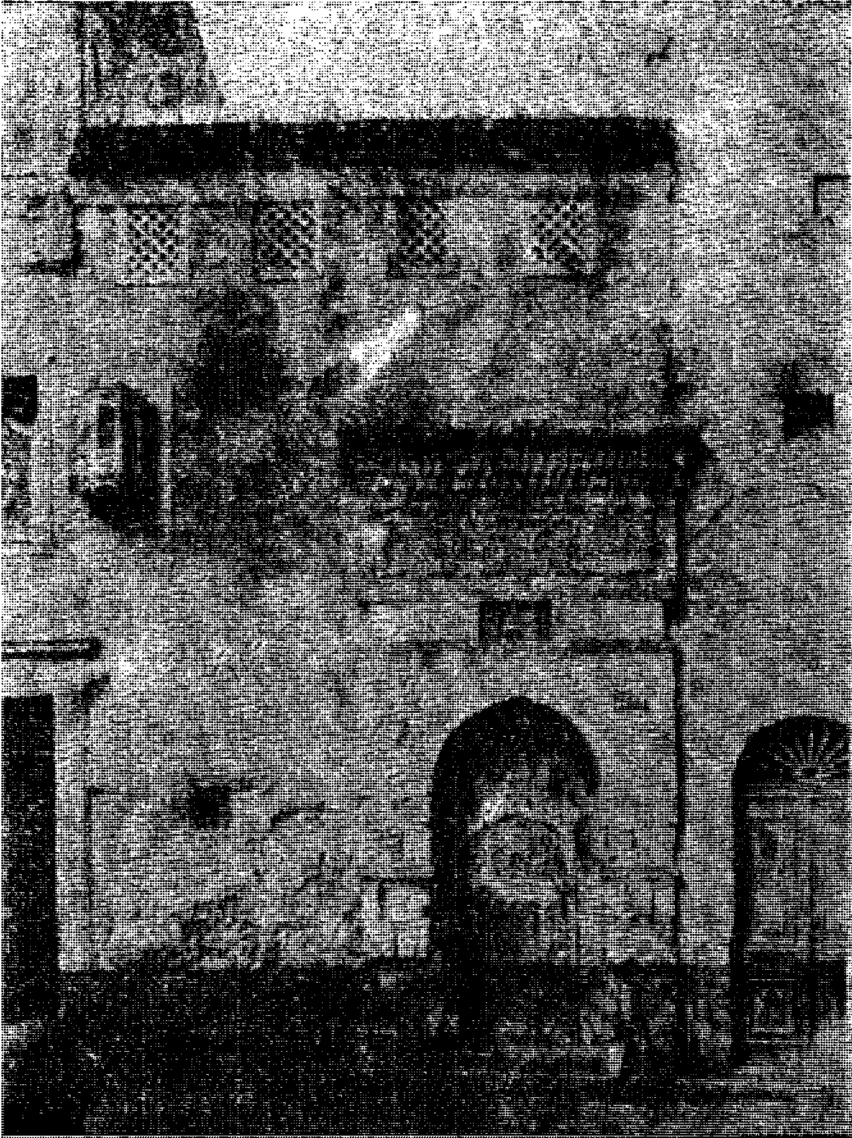
عمرت الاسكندرية بالقصور البديعة التى شيدها أمراء المماليك ، وللأسف لم يصل إلينا من أسمائها إلا عدد قليل للغاية ، أهمها قصر السلاح ، وكان يقع بالقرب من الباب الأخضر ، وكان يتألف من قاعات كثيرة مملوءة بالعدد والأسلحة ، كما كان يضم مسجدا (١) . أما قصر النائب ، المسمى بدار النيابة ، فكان داخل أسوار المدينة بالقرب من باب البحر ، وكان هذا القصر يطل على الميناء الشرقية . ويذكر ابن شاهين الظاهرى قصرا آخر يعرف بدار السلطان "بها دور متسقة وهى عجيبة من عجائب الدنيا ، وبها دار عظيمة ، وبها تخت الملك ، قيل إنه لم تعمر دار وسعها ، أنشأها فى الأصل المقوقس ، ثم بعده جوهر الموتفكى ، ثم بعده صلاح الدين بن أيوب ، ثم بعده الملك الناصر فرج بن برقوق ، وبها من الأعمدة الرخام الملونة ، والقياع المفروشة بالرخام الملون ، والأماكن المزخرفة ، والبساتين الحسنة ، ما يطول شرح وصفه . وهى مشرفة على البحر المحيط ، لايسكنها إلا السلاطين خاصة (٢) . ولم تزل إلى الآن مقفولة . وقد استأذنت المقام الشريف الملك الأشرف (برسباى) على السكنة فيها ، حين كنت نائب السلطة الشريفة بالثغر ، فأمر لى بذلك ، وزوجنى بأخت زوجته ، خوند الخوندات جلبان ، تغمدهم الله برحمته ، ولم يكن سبق لأحد ذلك من نواب الثغر . ونصب بالقاعة العظمى الحلل مالا يوصف ، ومن جملة ذلك سبعة بشاخين مختلفة الألوان ، وأشياء عجيبة مما يطول شرحه" (٣) .

---

(١) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ٤٠ ، جمال الشيال : المرجع السابق ص ٢٣٩ .

(٢) أنظر (الملحق ز) ففيه وصف لهذا القصر .

(٣) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى : المرجع السابق ص ٤٠ .



(شكل ٢) واجهة أحد الدور القديمة بالاسكندرية
(خلف مسجد أبي العباس)

٢ - الدور :

كانت الاسكندرية فى العصر الاسلامى تزخر بالدور الفخمة التى أخذها المسلمون من الروم فسميت لذلك أخائذ ، وذكروا أن عمرو حين افتتحها أحصى دورها ، فوجد أنها أربعة آلاف دار ، محكمة البناء ، مفروشة بالرخام الملون ، وفى كل دار منها حمام تختص بها . ومضت موجة الفتح ، وأقام العرب فى هذه الأخائذ ، ومالبثت المدينة أن تعربت ، وأقيمت فيها بجانب الدور الحكومية مثل دار الامارة ، ودار الطراز ، والأهراء ، وبيت المال ، دور أخرى خاصة ، مثل الدار التى أقامها الزبير بن العوام عند الفتح ، والدار التى نزلها خمارويه عند مريوط من ضواحى الاسكندرية (١) . وتفنن أهل الاسكندرية فى العصر الفاطمى فى إنشاء دورهم ، فكانت دار أحد قضاتها وهو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد أقرب إلى القصر الريفى من القصور الكبرى . وكانت تحتوى على صحن فسيح ، مغروس بأطايب الأشجار ، وتتوسطه نافورة من الرخام ، يندفع منها الماء ، ثم يتساقط فى بركة (٢) . وكان المظهر الخارجى للدار الاسلامية بسيطا كل البساطة ، يخلو عادة من النوافذ — باستثناء بعض المشربيات فى الغرف العليا — ، وهو مظهر يتعارض كلية مع المظهر الداخلى ، حيث تتركز كل مظاهر الحياة الأسرية ، وحيث تتراكم جميع الزخارف . ويمكن تفسير الاهتمام بداخل البيت دون خارجه تفسيرا نفسيا ، بأن المرأة المسلمة كانت لا تخرج من بيتها إلا نادراً ، وكانت تقضى كل حياتها فى داخل بيتها ، فمن الطبيعى إذن أن يهتم البناء بداخل البيت ، فيزين الجدران بزخارف

---

(١) محمد عبد الهادى شعيرة : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ص ٨٦ .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠ .

الجص ، ويتأنق فى كسوتها بالرخام ، والزليج (الزليزلى) ، ويغرس الأشجار فى الفناء ، حتى تعوض المرأة ما كانت تفقده بعزلتها عن الحياة الخارجية ، فتجد بالداخل ما ينفث عنها ، ويسرى عن همومها (١) .

أما فى عصر المماليك ، فقد تكيفت الدور وفقاً لعوامل مناخية واجتماعية ودينية . فقد شاع بناء المقاعد ،وهى عبارة عن قاعة مفتوحة من الجهة البحرية ، كما كان يتوسط الدار صحن مكشوف تزينه نافورة ترطب مياهها سخونة الجو (٢) . وشاع استخدام المشربيات فى واجهات المنازل ، ووظيفة المشربية سد الفتحات المطلة على الخارج ، وتمكن النساء من رؤية ما يدور فى الشوارع ،دون أن يراهن أحد . وكثيرا ما كانت الدار تنقسم إلى قسمين : قسم بالطابق الأرضى خاص بالرجال يعرف بالسلاملك ، وقسم بالطابق العاوى خاص بالحريم يسمى الحرملك (٣) . ولم يتبق للأسف شىء من أثار الدور المملوكية . وكل ما تحتفظ به الاسكندرية الآن من الدور ، بعض الدور التى أقيمت فى العصر التركى المتأخر بحى الجمرك وحى المنشية .

٣ ـ الحمامات :

تعتبر الحمامات من أهم المنشآت فى المدينة الإسلامية ، وكانت كثرة الحمامات وتعددها هى الظاهرة البارزة فى مدينة الاسكندرية منذ العصر الرومانى . فقد وجد العرب عندما فتحوا الإسكندرية بحو ١٢ ديماسا أصغرها يسع ألف مجلس (٤) . وكثير بناء الحمامات بالإسكندرية فى العصر الإسلامى على نحو ما حدث فى الفسطاط ، فقد ذكر المقريزى أن الفسطاط كانت تحتوى على ١١٧٠ حماما ، وهى مبالغة ظاهرة ، ومع ذلك

---

(١) السيد عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران ص ٦٠ .

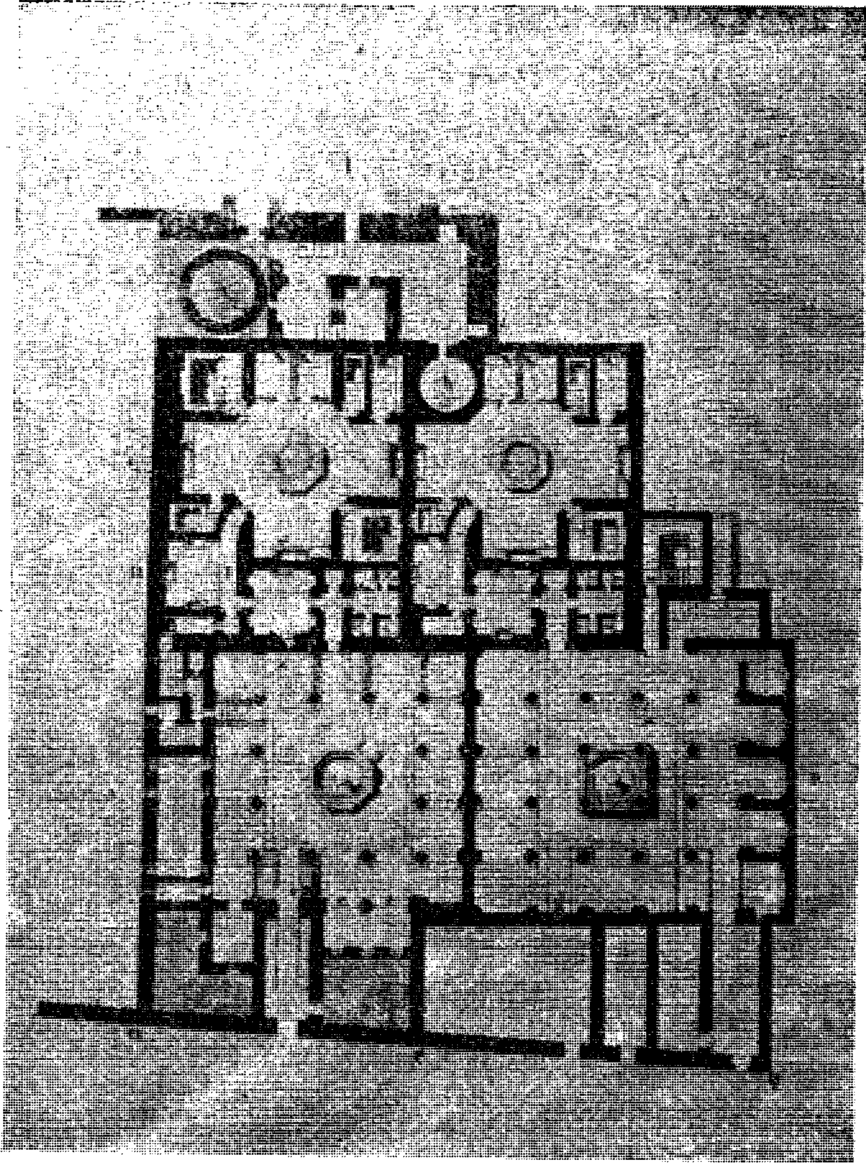
(٢) كمال الدين سامح : العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥٣

(٣) كمال سامح : المرجع السابق ص ١٥٩ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٤ .



(شكل ٢١) حمام المؤيد بالقاهرة



(شكل ٢٢) تصميم لحمام بالاسكندرية

فهى تدلنا على كثرة بناء الحمامات فى الفسطاط . والواقع أن مكان الحمام فى العمارة الاسلامية يتبع مكان الدار ، فان عادة الاستحمام كانت من العادات المتاصلة فى الإسلام ، وذلك للطهارة والنظافة . ولا شك أن الإسكندرية كانت تضم عددا كبيرا من الحمامات ولكن هذه الكثرة لاتمنع من ضياعها . ويذكر الأستاذ ادمون بوتى Edmond Pauty أنه عثر فى الإسكندرية على ستة حمامات قديمة (من العصر الإسلامى ولعلها من أواخر عصر المماليك وأوائل العصر العثمانى) هى : حمام حسن بك عبد الله بكوم الشقافة — حمام جامع الشيخ بشارع جامع الشيخ — حمام الذهب بشارع صلاح الدين — حمام الناضورى بشارع الضبطية — حمام المصرى بشارع ساحل الغلال — حمام الشيخ بشارع أبى الدرداء . وكان حمام الذهب أجمل وأعظم هذه الحمامات جميعاً ، وكان يتردد إليه الرجال والنساء على السواء ، ويشتمل على أربعة مغاطس . ونظام بيت المسلخ (١) فى هذا الحمام وعناصره المعمارية تدل دلالة قاطعة على قدمه . وكان يتوسط بيت المسلخ قبة (لم يبق منها سوى المقرنصات) وتقوم على أربعة أعمدة من الرخام رؤوسها كورنثية ، اتخذت من بعض الأبنية البيزنطية (٢). وفى كتاب وصف مصر Description de l'Egypte لوحة تصور حماما للنساء وللرجال مكتمل العناصر ، كما نجد تصميما لهذا الحمام ننشره فى هذا الكتاب . (شكل ٢٢) ونلاحظ أن بيت المسلخ فى هذا الحمام يتبع النظام المعمارى الشائع فى عصر المماليك ، بقبته المرتفعة ، القائمة على ثلاثة طوابق من صفوف المقرنصات ، كما أن جوفاته المقوسة بالأركان وعقوده ، تذكرنا بالقاعة الكبرى فى حمام المؤيد بالقاهرة (٣) (شكل ٢١) .

---

(١) بيت المسلخ هو المكان الذى يتجرد فيه المرء من ثيابه ويتأزر بازار قبل الدخول فى البيت الساخن .

(٢) E. Pauty: les Hammams du Caire, le Caire, 1933, p. 40

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

٤ - الصهاريج والخزانات :

كانت ترعة الخليج تخترق مدينة الاسكندرية وتتشعب إلى فروع تصب فى البحر ، وكانت تتفرع منها شبكة من القنوات المائيه تمتد فى جوف الأرض ، وتصل إلى الدور والبساتين . وقد شاهد ابن جبير هذه الظاهرة فعبر عنها بقوله : " ومن العجب فى وضعه (وضع هذا الثغر) أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقتها تحت الأرض ، وتتصل الآبار بعضها ببعض ويمد بعضها بعضا " (١) : وقد كشفت الحفائر الأثرية التى تجريها البعثة البولندية عن بعض هذه الصهاريج والخزانات المقباة . ويغلب على الظن أنها ترجع إلى العصر الإسلامى.

٥ - الفنادق :

الفندق أو الخان بناء على قدر كبير من الأهمية ، وكان يقوم بوظيفتين فى آن واحد : خزن كميات كبيرة من السلع قبل توزيعها على تجار القطاعى وإيواء التجار الغرباء (٢) . وكانت الإسكندرية تزخر بعدد كبير من هذه الفنادق وذلك لنشاطها التجارى الكبير ، وكانت تضم عدداً من الفنادق الأجنبية لاستعمال التجار البنادقة والجنويين والبيزيين والفلورنسيين والقبارصة والفرنسيين والأرغونيين والقطالانيين والمغاربة .

٦ - دار الصناعة :

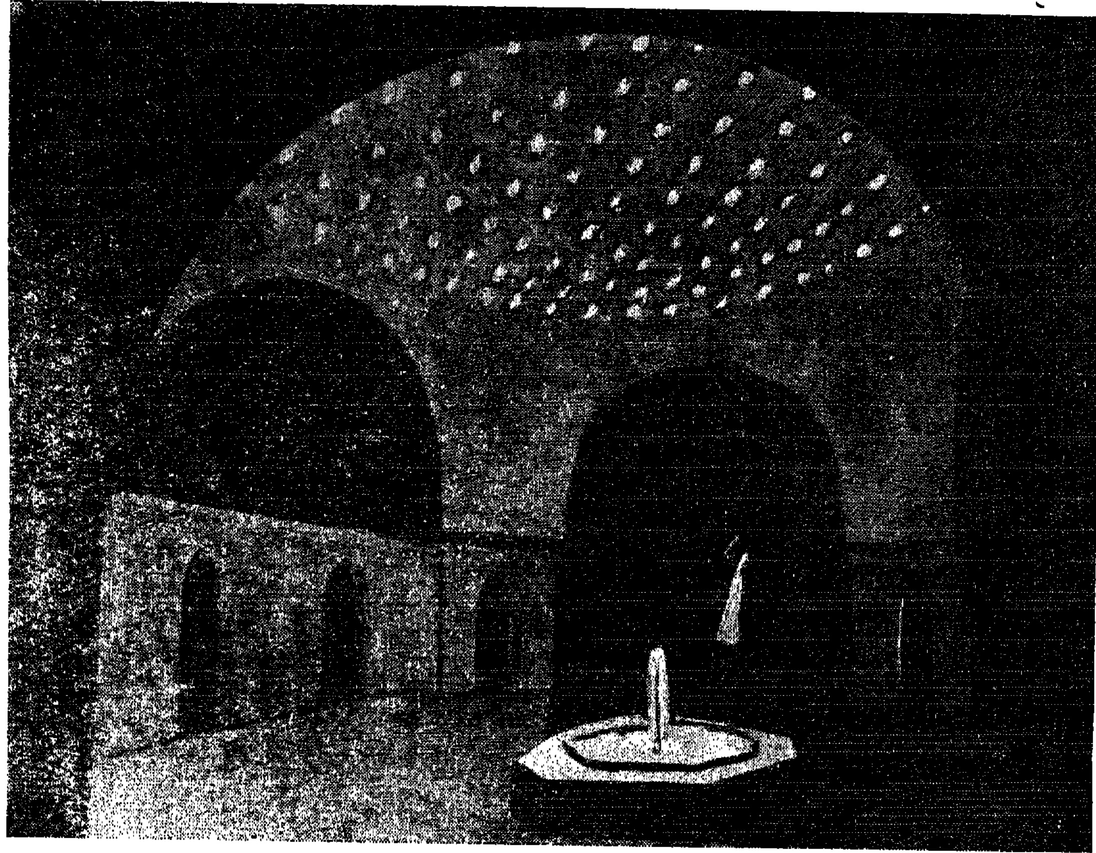
كانت بالاسكندرية فى العصر الأيوبى دار صناعة واحدة (٣)تقوم بانشاء السفن اللازمة للأسطول المصرى ، ولعلها الدار التى أسسها عبد الله بن

---

(١) ابن جبير : الرحلة ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم : التخطيط مظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى ص ٥٧ .

(٣) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٣٤٠ .



(شكل ٢٣) داخل أحد حمامات الاسكندرية



(شكل ٢٤) وكالة جوربجى

سعد بن أبى السرح (١) . ويبدو أن هذه الدار كانت قائمة بجوار باب البحر . ويستدل من وصف النويرى لزيارة الأشرف شعبان ، أنه كانت بالاسكندرية داران لصناعة السفن : إحداهما بالميناء الشرقية والأخرى بالميناء الغربية ، وكانت هاتان الداران تنتجان أنواعا مختلفة من السفن مثل القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشوانى والشياطى والسلالير والعشاريات والبطس والحراريق (٢) .

٧ - دار الضرب :

يذكر ابن مماتى أنه كانت بثغر الإسكندرية دار لضرب ، وظيفتها سبك ما يحمل إليها من الذهب المختلف ، كما كانت هذه الدار تقوم بسبك الفضة وعمل الدراهم . وظلت هذه الدار قائمة فى عصر المماليك فى أيام الأشرف شعبان (٣) . وأضاف الظاهر برقوق إلى هذه الدار داراً لضرب عملة الفلوس (٤) فكان أهل الإسكندرية لا يتعاملون إلا بالدراهم الفضية المسماة باسم المسودة . فكانت تسمى عندهم بالورق (٥) .

---

(١) سيدة الكاشف مصر فى عصر الولاة ص ٥٦ ، جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٤ .

(٢) القراقر : سفن لحمل البضائع ، والطرادات سفن لها أبواب تفتح وتغلق معدة لحمل الخيل بسبب الحرب . والغربان سفن تحمل الغزاة وسيرها بالقلع والمجاديف والشوانى سفن حربية كبيرة ذات أبراج والشياطى سفن تجر بثمانين مجدافا وظيفتها الاستطلاع . والعشاريات سفن لحمل البضائع تسير بعشرين مجدافا والبطس نوع من السفن الحربية الكبيرة تستعمل لحمل المجانيق والعرادات ، والحراريق سفن حربية تحمل الأسلحة المحرقة كالنار الاغريقية .

(٣) جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٣٣١ — ٣٣٣ .

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة بكشف الغمة ص ٧١ .

(٥) نفس المرجع ص ٦٥ .

٨ – دار الطراز :

ذكر النويرى عند وصفه لموكب السلطان الأشرف شعبان ان دار الطراز بالثغر كانت تقع بالقرب من دار صناعة السفن ، وأنها حظيت بزيارة السلطان لها وأنه " أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . . . وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيوط الطالعة والهابطة ، إلى أن يكمل كل طائر غيره " (١) . ولا شك أن دار الطراز بالاسكندرية فى عصر المماليك هى نفسها التى كانت قائمة منذ بداية الفتح الإسلامى مع بعض التعديلات اللازمة . ويرجح الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق أن يكون أصل دور الطراز هو الجنسيم Gynœceum التى وجدها العرب فى الإسكندرية عند الفتح (٢) لأن الإسكندرية كانت قد اشتهرت فى العصر البطلمى والرومانى بنسج الحرير ، وكان الجنسيم ملحقاً بقصر الوالى (٣) . وذاعت شهرة الإسكندرية فى العصر الإسلامى ، إذ كانت منسوجاتها تصل إلى سائر أقطار الأرض . وكان أكثر هذه المنسوجات شهرة الثياب الكتانية المعروفة باسم الشرب (٤) . واشتهرت الإسكندرية بصناعة الوشى والسقلاطون

---

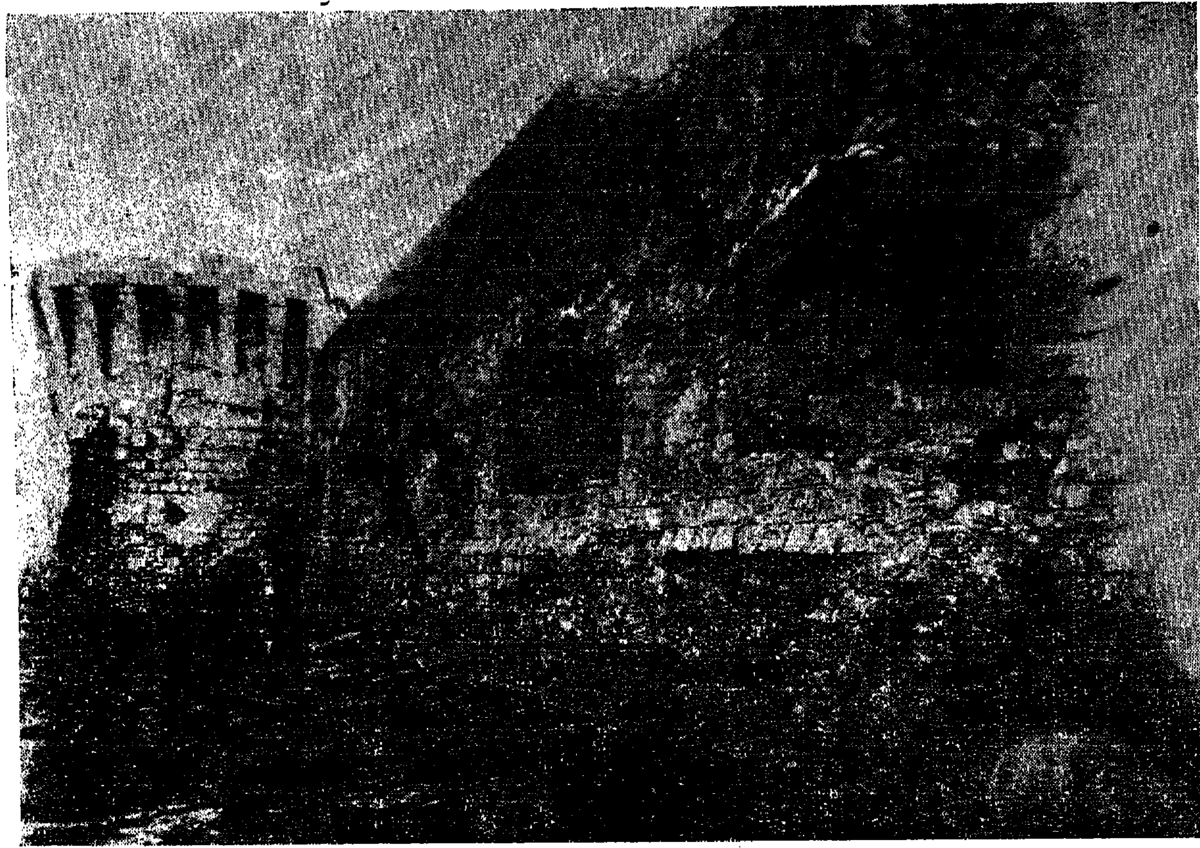
(١) النويرى : الالمام بالاعلام بما جرت به الأحكام — جمال الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ١٠٢ .

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ ص ٢٢ ،

Alexandria as a tex ile centre, B. I. A. C., t. t. XIIè.

(٣) نفس المرجع ص ٣٤ .

(٤) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٥٦ .



(شكل ٥٢) قلعة قايتباى : منظر قديم لأحد أبراجها المستديرة

والشرب والمنمر (١) والمعرج (ذى الدالات) والطردوحش (٢) ، وسنتحدث عن أنواع هذه المنسوجات عندما نقوم بدراسة صناعة النسيج .

(ج) العمارة الحربية:

كان سور الاسكندرية فى العصر الفاطمى ما يزال سليما منذ أن أسسه أحمد بن طولون ، لذلك لم يتلق من عناية الخلفاء الفاطميين إلا قدرا ضئيلا . فى خلافة الآمر بأحكام الله قام والى الاسكندرية بتجديد بعض أجزائه سنة ٥١٧ هـ كذلك أقام الأمير أبو الأشبال ضرغام بن سوار برجا عند باب البحر عرف ببرج ضرغام (٣) فلما قامت الدولة الأيوبية فى مصر اهتم صلاح الدين بمدينة الإسكندرية اهتماما خاصا وذلك لتكاتف أهل الاسكندرية معه عندما حاصرها الصليبيون ، فأمر باصلاح أسوار المدينة سنة ٥٦٩ هـ كما أمر بترميم حصونها وأبراجها ، وقدم إلى الإسكندرية فى رمضان سنة ٥٧٢ هـ ليشرف بنفسه على أعمال الترميم .

ويبدو أن أسوار الإسكندرية — خاصة الأجزاء الشمالية منها — أصيبت ببعض الأضرار فى أواخر عصر الدولة الأيوبية ، الأمر الذى دفع بالظاهر بيبرس إلى زيارة المدينة عقب توليه السلطنة لترميم أسوارها والعناية بها ، وقد لاحظ ابن بطوطة حصانة هذه الأسوار عند زيارته للإسكندرية عام ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) .

ثم تعرضت أسوار الإسكندرية مرة ثانية للتخريب عندما غزاها القبارصة بقيادة بيير دى لوزنيان سنة ٧٦٧ هـ ، فأمر الأشرف شعبان نائبه على الاسكندرية خليل بن عرام أن يرمم ما تهدم من أسوارها ، وقدم السلطان بنفسه لزيارة المدينة والاشراف على تحصيناتها سنة ٧٧١ هـ (١٣٦٩م)

---

(١) يرى الدكتور مرزوق أنه سمى كذلك بسبب الرسوم التى تصور النمور ونعتقد أن سبب تسميته بالمنمر أنه كان يزدان بالزخارف المخططة .

(٢) Marzouk: Alexandria as a textile centre, P. 127.

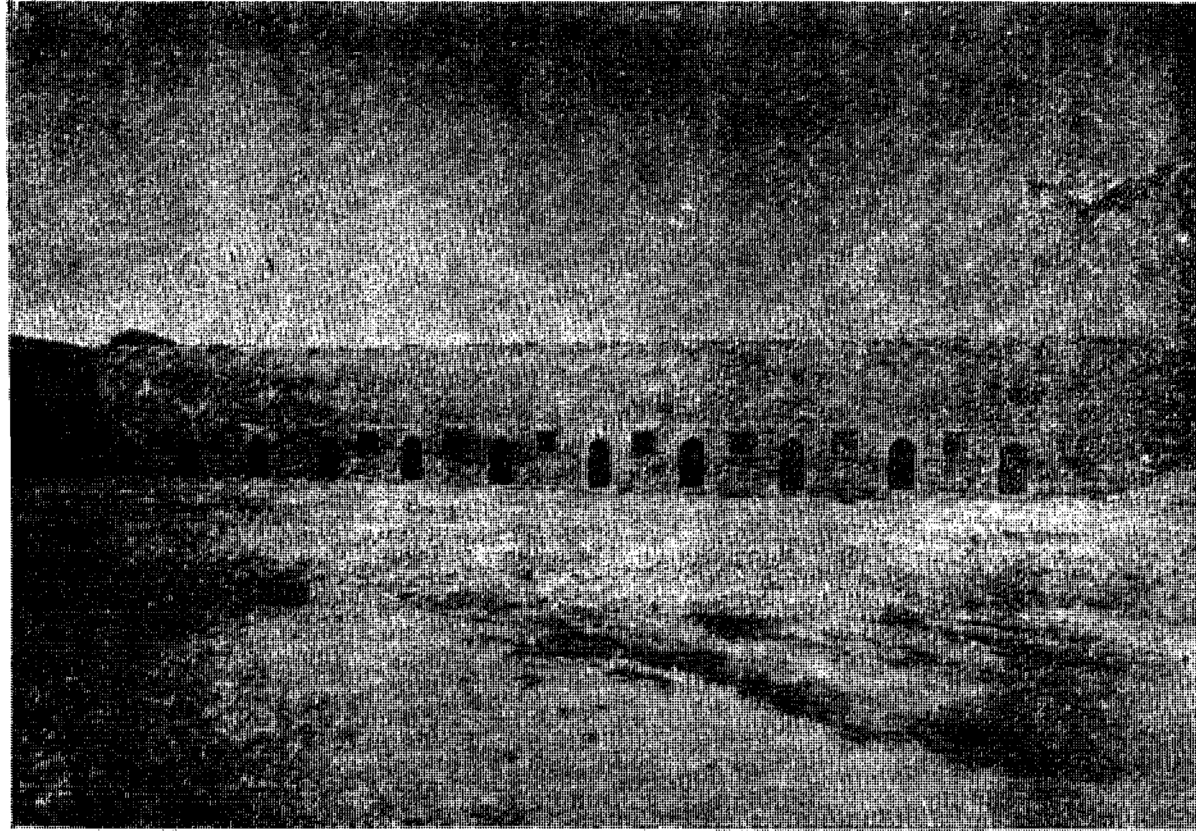
(٣) جمال الشيال : الاسكندرية ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

ويبدو أن السور الشمالى هو الذى أصيب أثناء غزوة القبارصه ، فرممه ابن عرام وجعله سورا مزدوجا يتألف من سور أساسى وستارة أمامية أو " حزام برانى " ، فقد وصفه غرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى بأنه مكون من سورين (١) . وقد ذكرنا أنه تأثر فى ذلك بالنظام الشائع فى تحصينات الأندلس . وعمل الأشرف قايتباى على حماية الاسكندرية من أى غزو بحرى ، فأمر بانشاء برج (قلعة أو طابية) فى نهاية اللسان الشرقى من جزيرة فاروس القديمة ، على أساس منار الاسكندرية الذى تهدم فى ذلك الحين ، لذلك اتخذت القلعة الجديدة شكل مربع (يتفق مع قاعدة المنار) . ويذكر المؤرخ المصرى ابن إياس إنه " توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بثغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا معظما " (٢) . هذا البرج مربع الشكل يدعم كل ركن من أركانه برج صغير مستدير الشكل تتوجه شرفات . ويضم بناء هذا البرج أو الطابية عدة أبنية منها مقعد مطل على البحر ، وجامع بمئذنته ومنبره (تزدان أرضيته بفسيفساء غاية فى الروعة والجمال) ، وطاحون وفرن وعدة حواصل : وكانت تعلو باب القلعة لوحتان على كل منها نقش كتابى نقرأ فيه : " عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره " . ولكن هاتان اللوحتان فقدتا . وهناك لوحة من الرخام على الباب المؤدى إلى الصحن عليها نقش كتابى ترجع إلى أيام السلطان قانصوه الغورى نصه : (بسم الله الرحمن الرحيم . رسم بأمر مولانا المقام الشريف الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى خلد الله ملكه أن لا أحد يأخذ من البرج الشريف بالإسكندرية سلاح مكاحل ولا بارود ولا آلة ولا غير ذلك . ومن خالف ذلك من جماعة البرج من مماليك وعبيد وزردكاشية وخرج منه بشىء شنق على باب البرج

---

(١) أنظر الفصل الخاص بالتخطيط والعمران ص ١١٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٢٨ .



(شكل ٢٦) صحن قلعة قايتباى

وعليه لعنة الله . بتاريخ شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعمائة من الهجرة) (١)

أما مسجد الطابية ، فقد ظل يحتفظ بمئذنته حتى الحملة الفرنسية (انظر شكل ٢٩) ، ثم تلاشت بعد ذلك وكانت لحوادث الاسكندرية فى النصف الثانى من القرن ١٩ م أثر كبير فى تخريب القلعة وعملت إدارة حفظ الآثار العربية على ترميمها وصيانتها (٢) .

ثانيا ـ الحالة الاقتصادية :

١ ـ التجارة :

كانت الاسكندرية أهم ثغور مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى الفتح العثمانى . فقد ظلت الاسكندرية بعد الفتح العربى طريق التجارة بين الشرق والغرب ولم تفقد مكانتها التجارية فى العصر العباسى على الرغم من سيطرة بغداد لتجارة العالم الاسلامى . وهكذا احتفظت الاسكندرية بعظمتها التجارية القديمة فاليها كانت تهوى ركائب التجار فى البر والبحر وتميز من قماشها جميع أقطار الأرض (٣)، لذلك انتعش الاقتصاد الاسكندرى انتعاشا ملحوظا بسبب الرسوم الباهظة التى فرضتها الدولة على السلع والمتاجر التى يأتى بها التجار الفرنج ، (وتعرف هذه الرسوم بضريبة الثغور) . وكان

---

(١) عبد الرحمن زكى : قلعة صلاح الدين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ١٥١ .

(٢) أنظر مقال للاستاذ حسن عبد الوهاب عن « قلعة قايتباى : أثر إسلامى عظيم وسط البحر » جريدة الأهرام فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٤٩ ، رسالة الماجستير المقدمة من الزميل الأستاذ محمد توفيق بلبع عن قلعة قايتباى بالاسكندرية . (مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية) ، ومقال للاستاذ كومب عن :

Notes sur les Forts d'Alexandrie et de ses environs: dans Bulletin de la Société Royale d'Archeologie d'Alex. No. 34,1940

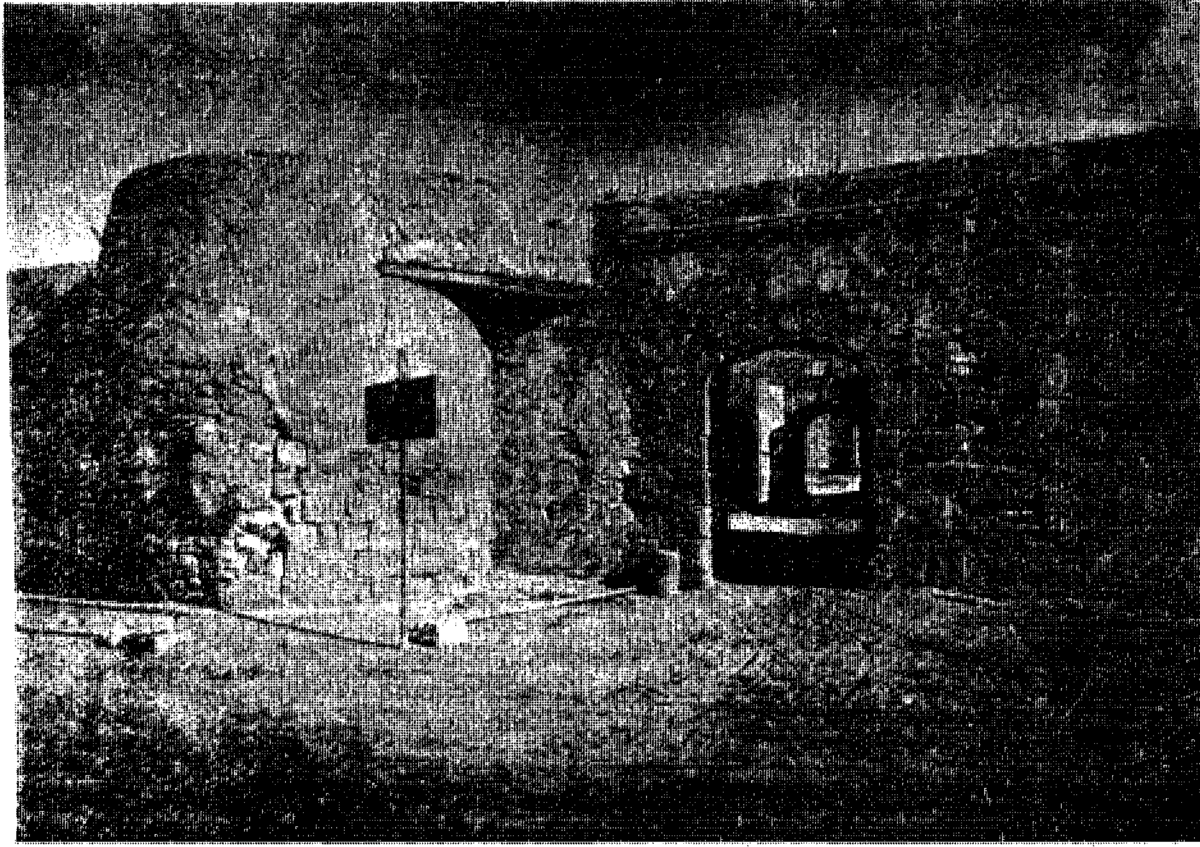
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٤ .

ويقول ابن بطوطة عن مرساها : « ولها المرسى العظيم الشأن ولم أر فى مراسى الدنيا مثله إلا ما كان من مرسى كولم (كيلون) وقاليقوط (كلكتا) ببلاد الهند ومرسى الكفار بسوداق ببلاد الأتراك (فى شبه جزيرة القرم) ومرسى الزيتون (تسنج تشيوفو) ببلاد الصين » رحلة ابن بطوطة ص ١٠ .

لتشجيع دولة المماليك للتجار الأجانب على القدوم إلى الاسكندرية والاتجار في الفنادق الأفرنجية التي أعدت للجاليات الأوربية (من بنادقة وجنويين وبيزيين وفرنسيين وقطلونيين وقبارصة وتتار) أثر كبير في الازدهار التجاري الذي أصاب الاسكندرية في هذا العصر . وقد حاولت البابوية أن تتدخل دينيا لدى الدول الأوربية عقب سقوط عكا في أيدي المماليك لقطع كل علاقاتها التجارية مع مصر ، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، لأن الدول والجمهوريات الأوربية التي تتعامل مع مصر لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق ، التي تأتي عن طريق واحد هو طريق دولة المماليك ، وظلت الدول الأوربية تعمل على كسب مودة سلاطين مصر بكافة السبل ، وعقد أكثر المعاهدات التجارية فائدة وأبعدها أثرا . وتشهد تقارير قناصل أوربا في الاسكندرية على كثرة التجار الأجانب في الاسكندرية وكثرة فنادقهم في هذه المدينة . وأخذت السفارات الأوربية إلى سلاطين مصر تزداد عددا ، فكانت هناك سفارات بعثها ملك أرغون وملك قشتالة وملك فرنسا وجمهوريات جنوة والبندقية وإمبراطور بيزنطة وملك البلغار ووادي الفولجا والبلاط العثماني والبلاط الايراني . وكان تجار قطالونية وجنوة والبندقية يجلبون إلى مصر ما كانت تحتاج إليه من الرقيق ومن الخشب ومن المنسوجات والفراء ، بينما كانوا يستوردون من مصر بهار الهند وخزف الصين ولآلىء الخليج الفارسي (١) . وكانت الاسكندرية على هذا

---

(١) فييت : المواصلات في مصر ص ٣٨ — ٣٩ . أقام سلاطين المماليك علاقات من المودة مع ملوك أسبانيا المسيحية : فقد عقد الأشرف خليل بن المنصور قلاوون معاهدة من الصداقة والسلام مع جايمي الثاني ملك أرغون في ١٩ صفر سنة ٦٩٢ هـ (٢٨ يناير سنة ١٢٩٢ م) كما أرسل ملك قشتالة سفارة إلى الناصر محمد ، ورد عليها الناصر بسفارة أخرى في ٥ رجب سنة ٦٩٩ هـ (٢٨ مارس سنة ١٣٠٠ م) أنظر Maximiliano Alarcon y Santon y Ramon Garcia de Linares: Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon, Madrid 1940, pp. 335-346 Hyd: Histoire du Commerce du Levant, t. 2, p. 125.



(شكل ٢٧) قلعة قايتباى : أحد الأبراج الخارجية

النحو أهم مركز فى مصر لتصدير البهار إلى أوربا،وعلى هذه التجارة اعتمد سلاطين المماليك فى تنمية موارد الدولة (١) . وزاد من هذه الموارد إحتكار سلاطين المماليك التجارة فى بعض الحاصلات مثل السكر والتوابل والأخشاب والمصنوعات المعدنية (٢) ، وبلغت هذه الاحتكارات ذروتها أيام الأشرف برسباى الذى أصدر فى عام ١٤٢٨ م مرسوما حرم فيه شراء التوابل من غير مخازن السلطان ، وفرض السلطان رسوما باهظة على الواردات والصادرات ، فارتفعت أسعار بعض السلع الشرقية ارتفاعا كبيرا مثل التوابل والحرير والسمك . وكانت هذه الاحتكارات مثاراً لسخط التجار الأجانب واستصراخهم للسلطان فقد شكا التجار المغاربة لفرج بن برقوق من جور القباض (٣) . كما احتج البنادقة على الأشرف برسباى سنة ٨٣٦ هـ (١٤٣٢ م) عن طريق ممثلهم فى الاسكندرية ، ولما لم يجبهم السلطان إلى مطالبهم قطعوا علاقاتهم بمصر وأرسلوا أسطولهم إلى الإسكندرية لإعادة التجار البنادقة إلى بلادهم . ولما شاهد برسباى ذلك عاد إلى صوابه ومنحهم شروطا أفضل فيما عدا احتكاره للفلفل (٤) . كذلك احتج القطالانيون على موقف برسباى منهم ، ورفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان ، ولكنه لم يجبهم إلى مطالبهم لأنه لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم (٥) . أما أرغونة وقشتالة فقد

---

(١) فييت : المرجع السا ق ص ٣٩ .

(٢) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجركسة ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٣) أنظر شكوى التجار المغاربة للسلطان فرج بن برقوق من قسوة الضرائب عند زيارته للاسكندرية وجور القباض وما أمر به السلطان من إبطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة (إبن إياس ج ٢ ص ١٧٣ ، ج ٤ ص ٤٢٦) .

(٤) Lane-Poole, History of Egypt in the middle ages, London, 1936, p. 340.

(٥) إبراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٢٨٩ . كانت التجارة فى البحر الأبيض المتوسط لا تخلو من الأخطار التى تنشأ غالبا من قراصنة قطالونية وصقلية وجنوة (أنظر فييت : المواصلات فى مصر الاسلامية ص ٣٩) .

احتجتا بشدة وعمدتا إلى رفع أثمان السلع الأوربية التى ترد إلى مصر ، ولم تكتفيا بذلك بل هاجمت سفنها السفن المصرية على سواحل الشام وأسرت بعضها . وأخيرا عقد برسباى مع ممثليها الصلح فى ٧ رمضان سنة ٨٣٣ هـ (٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ م) (١) .

ثم أخذ مركز الاسكندرية كثغر تجارى يتضاءل تدريجيا بعد أن كشف البرتغاليون طـريق رأس الرجاء الصالح ، ولم تلبث المدينة أن هجـرها التجار من سائر الأقطار فاضمحلت وسادها الخراب حتى دخلها العثمانيون ، فانتكست نكسة طويلة لم تفق منها إلا منذ عهد قصير .

ب — الزراعة :

كانت الاسكندرية إلى جانب شهرتها التجارية العظيمة مدينة تحيط بها المزارع والحقول ، وكانت أرضها تنبت الكروم والزيتون والتين واللوز والجوز وسائر الفواكه والبقول والرياحين (٣)وقد شاهد ابن جبير عند رحيله من الاسكندرية إلى دمنهور بسيطا من الأرض "كله محرث يعمه النيل بفيضه والقرى فيه يمينا وشمالا لا تحصى كثرة " (٤) .

ولما حفر الناصر محمد بن قلاوون خليج الاسكندرية ، استغنى أهل الاسكندرية عن الصهاريج وقام الناس بالزراعة على طول الطريق إلى الإسكندرية ويذكر

---

(١) أنظر الملحق فى آخر الكتاب .

(٢) محمد عبد الهادى شعيرة . الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ص ٩٠ يصف ابن رسته الطريق النهرى إلى الاسكندرية من الفسطاط فيقول « تخرج منها فى سفينة منحدرا فتسيح مقدار ثلاثين فرسخا عن يمينك ويسارك النخيل والبساتين والضياع حتى تنتهى إلى سور الاسكندرية » (أنظر كتاب الأعلاق النفيسة ص ١١٨) .

وفى موضع آخر يقول : « . . . فتدخل من باب الشرق من الاسكندرية فهنالك قبة خضراء عليها ستة عشر عمودا من رخام وهى وسط المدينة بناها الاسكندر ، يمنه من هذه القبة البحر ، ويسرة منها أشجار الجميز والكروم » نفس المرجع .

(٣) ابن جبير ص ٤٤ .



(شكل ٢٨) قلعة قايتباى : داخل سور القلعة

المقريزى أنه استجد من الأراضى ما يربو على مائة ألف فدان زرعت بعد ما كانت سباخا ، وما ينيف على سمّائة ساقية برسم القلقاس والنيلة والسمسم وفوق الأربعين ضيعة وأزيد من ألف غيط بالاسكندرية "(١) . غير أن هذه الترعة لم تلبث أن سدت وطمرتها الرمال فتلف الجزء الأكبر من الحقول والبساتين المحيطة بالاسكندرية وتلاشت القرى . ولما أعاد برسباى حفر الخليج (ترعة الأشرفية) لم تعد البساتين كما كانت من قبل إذ أخذت الاسكندرية تسير سيرا حثيثا نحو الاضمحلال .

ج - الصناعة :

اشتهرت الاسكندرية فى العصر الاسلامى فى ميدان الصناعات ، وأهم هذه الصناعات : صناعة النسيج ، وصناعة الخزف ، والعاج والزجاج وصناعة السفن .

١ - صناعة النسيج :

ظلت الاسكندرية تحتفظ بعد الفتح الاسلامى بمركزها القديم فى صناعة المنسوجات ، فلم تتأثر بهذا التغير السياسى والدينى ، لأن العرب لم يقوموا بأى تغيير جوهرى فى صناعة النسيج ، وقنعوا بادخال الكتابة العربية فى منتجاتهم (٢) . وقامت دور الطراز بانتاج كسوة الكعبة والخيام والأعلام والخلع التى كان يخلعها الولاة على من شاءوا من الناس ، لتشريفهم . كذلك اشتهرت الاسكندرية بانتاج أنواع جديدة من المنسوجات مثل الوشى والسقلاطون والشرب والمنمر والمفرج السكندرى (نوع من الطرح المذهبة) والشاش الحرير السكندرى المموج بالذهب والطردوحش (٣) والبشاخين .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٢) M. A. Marzouk: Alex. as a textile centre, p. 126.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ص ٥٢ ، ٥٣ . يذكر السيوطى أن=

ويذكر القلقشندى أن دار الطراز بالاسكندرية كانت تختص بانتاج الثياب السلطانية الحريرية المرقومة بلون مخالف للون القماش أو الطرز (١) .

ولما زار الأشرف شعبان دار الطراز بالاسكندرية " جعل يطوف على الأنوال ويبصرها ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ويتفرج على الصناع كيف ينسجون وإلى مكاكهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد فى أعلا الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المتادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طاير وغيره " (٢) . ويحتفظ متحف الفن الاسلامى بالقاهرة بعدد من قطع النسيج التى تحمل كتابة كوفية تشير صراحة إلى أنها من إنتاج دار الطراز بالاسكندرية . وكانت الاسكندرية تصدر منسوجاتها إلى أوربا وكان قماش الاسكندرية مما يهادى — به سلاطين مصر لملوك إسبانيا (٣) .

ويشير النائب الاسكندرى خليل بن شاهين الظاهرى إلى إزدهار صناعة النسيج فى عصره بقوله " ويعمل بهذا الثغر من الأقمشة العجيبة التى لاتوجد فى غيره " (٤) .

= بالاسكندرية يعمل الوشى الذى يقوم مقام وشى الكوفة (ج ٢ ص ١٧٣) والبشاخين نوع من المخمل (ابن إياس ج ٤ ص ٣٣٤ — ابن شاهين الظاهرى ص ٤٠) .

(١) القلقشندى : نفس المرجع ج ٤ ص ٧ .

(٢) النويرى : الالمام بالأعلام ق ١٤٢ ذكرها الدكتور مرزوق فى بحثه عن الاسكندرية ص ١٣١ .

(٣) أنظر الوثائق العربية بكتاب Los Documentos Arabes, No. 146, 149 من هذه الهدايا نوع اسمه القشى والقطف وكنجى ومفرج مطرز ، وشواشى حرير أحمر

(٤) ابن شاهين الظاهرى : المرجع السابق ص ٤١ .



(شكل ٩٢) منظر قديم لقلعة قايتباى وترى بأعلاها مئذنة مسجدها الجامع

٢ - صناعة الخزف :

عرفت الاسكندرية قبل الاسلام صناعة الخزف ، وكانت تؤلف مركزا هاما لصناعة التحف الفخارية الصغيرة المتخذة للزينة كالكؤوس ذات الرسوم البارزة . وكانت تغطى كلها باللون الأخضر ، أما جزؤها الداخلى فكان لونه يميل إلى الأصفر (١). ولا شك أن هذه الشهرة استمرت بعد الإسلام وعلى الأخص فى العصرين الفاطمى والمملوكى،فلقد أسفرت الحفـائر الأثرية التى قامت بها كلية الآداب فى كـوم الدكة سنة ١٩٤٨ عن كشف قطع هائلة من الخزف الفاطمى والخزف الشائع فى عصر المماليك، كما كشف عن بقايا النباتات البحرية ومخلفات الحريق وكتل زجاجية تشير كلها إلى أنه كان يقوم فى هذه البقعة مصنع للخزف ، هذا إلى جانب قطع كثيرة من خزف أجنبى (صينى وأندلسى وإيرانى وسورى) (٢) مما يدل قطعا على أن الصناع الاسكندريين كانوا يقومون بتقليد هذه المنتجات المستوردة فى صناعتهم المحلية . وأغلب ما عثر عليه قطع من النوع المعروف بالجرافياتو ونعنى به الخزف المصنوع من طينة حمراء اللون ومغطى بطبقة من طينة بيضاء تسمى البطانة ، وتتسم زخارف هذا النوع بأنها ترسم فوق البطانة ثم تزال الأجزاء المحيطة بالزخرفة حتى تبدو الطينة الحمراء ويظهر الرسم بذلك بارزا ، ثم تزجج الأنية بعد ذلك . وتتميز القطع التى عثر عليها بحمـل كتابات نسخيه منهـا " الأمـيرى " و " المولوى " و " الملكى " و " المقرى " وكلها ألقاب كان يحملها المماليك،كما عثر على قطعة تحمل توقيع أحد الصناع المشهورين فى عصر المماليك وهو شرف الأبوانى .

---

(١) Arthur Lane, Early Islamic Pottery, London, p. 9

(٢) حفائر جامعة الاسكندرية فى كتاب « الاسكندرية » الذى وضعته غرفة اسكندرية التجارية ص ١١٧ .

كذلك كشفت البعثة البولندية التى تقوم بحفائرها فى موضع آخر من منطقة كوم الدكة عن كميات كبيرة من الخزف ، منها النوع الفاطمى المعروف ببريقه الذهبي ، ومنها النوع الأيوبى الذى تتشمع منه الزخارف ومنها النوع المملوكى المعروف بالجرافياتو . كذلك عثرت البعثة المذكورة على قطع من الخزف الأندلسى والإيرانى مما يدل على أنه كان يرد إلى الاسكندرية بعض الأوانى الخزفية من الشرق والغرب . ولقد كان الخزف الأندلسى من الأنواع الممتازة التى كان يقتنيها الناس ، وليس أدل على ذلك مما قدمه سفير السلطان الغالب بالله أبى عبد الله محمد بن نصر ملك غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق من هدايا من الخزف والثياب . ويذكر السفير الأندلسى أنه قدم إلى السلطان المصرى " شيئا مما اصطحبناه من متاع الأندلس كالفخار المالقى والانجبار الغرناطى وشىء من ثياب الخز المنسوجة بها " (١) .

٣ـ صناعة الزجاج :

كانت الاسكندرية معروفة منذ عصورها القديمة بصناعة التحف المصنوعة من الزجاج ، وظلت هذا الصناعة مزدهره فى العصر الاسلامى فكانت تصنع من الزجاج الأوانى والقارورات والأختام (٢) . وكانت الاسكندرية من أهم مراكز صناعة الزجاج فى مصر فى العصر الفاطمى (٣) ويذكر المقريزى إسم مدينة الاسكندرية بين المدن التى اشتهرت بصناعة الزجاج (٤) . وكشفت الحفائر الأثرية بمنطقة كوم الدكة عن كميات

---

(١) عبد العزيز الأهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مايو ١٩٥٤ ص ١٠٥ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ١١٧ القاهرة ١٩٣٥ .

(٣) زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٥٨٦ القاهرة ١٩٤٨ .

(٤) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٤٢ .

من القطع الزجاجية والبلورية وقطع من الزجاج المزين بزخارف مذهبة ومموهة بالمينا من النوع الشائع فى المشكاوات .

ثالثا ـ الحالة العلمية :

كانت الاسكندرية عند مافتحها عمرو بن العاص أعظم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية (١)، غير أن مدرسة الاسكندرية لم تلبث أن اضمحلت بعد الفتح العربى لانصراف أهل مصر عن دراسة الثقافة اليونانية وإقبالهم على الثقافات العربية بعد أن نزلها عدد كبير من العرب اليمنية الشامية ، ومع ذلك فقد ظلت الاسكندرية تحتل مركزها الثقافى القديم فى الشرق على الرغم من تعربها . ونبغ من رجالها كثيرون فى الطب والكيمياء والفلسفة . وعلى يد علمائها تعلم خالد بن يزيد علم الكيمياء بعد أن أمرهم بنقل كتب الكيمياء إلى العربية (٢). ونبغ فى الطب طبيب نصرانى اسمه بليطان السكندرى (توفى سنة ١٨٦ هـ) وسعيد ابن نوفل الذى كان فى خدمة ابن طولون ، وسعيد بن البطريق المتوفى فى رجب سنة ٣٢٨ هـ. أما العلوم الدينية مثل الفقه والحديث فقد اختصت بها الفسطاط ، أما الاسكندرية فلم تزدهر فيها هذه العلوم إزدهارها فى الفسطاط حتى أواخر أيام الدولة الفاطمية ، فظهرت بالاسكندرية مدرستان سنيتان للحديث الثقافة الاسلامية كان لهما الفضل الأعظم فى النهضة العلمية التى أصابت الاسكندرية فى ذلك العصر . الأولى المدرسة العوفية التى أنشأها الوزير رضوان بن الولخشى سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٧ م) للفقيه أبى الطاهر إسماعيل مكى بن عيسى بن عوف الزهرى الاسكندرانى تلميذ أبى بكر الطرطوشى (توفى ابن عوف فى شعبان سنة ٥٨١ هـ)(٣) والثانية المدرسة السلفية التى أنشأها العادل بن السلار وزير الظافر سنة

---

(١) نبغ فيها أفلوطين الفيلسوف .

(٢) سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ص ١٨٩ .

(٣) السيوطى ج ١ ص ١٩٢ ، حسن عبد الوهاب : الاسكندرية فى العصر الاسلامى ص ٣٨٢ .

٥٤٦ هـ (١١٥١ م) للحافظ أبي طاهر عماد الدين أحمد بن محمد بن أحمد السلفي الأصفهاني أوحد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية(١) .

وهكذا تألفت في الاسكندرية مدرسة للحديث والفقه وأصبحت مركز الرحلة ومقصد العلماء . ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب أنه استوطنها في العصر الفاطمي جلة من العلماء كان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية منهم العلامة ابن أبي مطر وابنه ،وعليهما سمع خلف بن محمد الخولاني المتوفى سنة ٣٧٤ هـ ، ومحمد بن ميسر فقيه الاسكندرية في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ،وعبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، وابن عباد الاسكندراني الشاعر ومحمد بن الحمشي الاسكندراني ، وابن الحداد،وابن الفحام المقرىء وابن الحطاب محمد بن إبراهيم الرازي ثم المصري ، والامام الطرطوشي ، والحافظ المقدس (٢) .

وتألقت الحياة العلمية بالاسكندرية في عصر صلاح الدين ، فاقد ذاع صيت السلفي وابن عوف ، وتوافد إليهما العلماء من أنحاء العالم الاسلامي للسماع عنهما فمن تلاميذ السلفي الحازمي محمد بن موسى الهمذاني وابن الحلاجلي والصفي بن شكر الوزير ،ومحمد بن خلف المقدس،والشاعر ابن قلاقس السكندري ،والعلامة الحميزي ، والحافظ علي بن مفضل اللخمي القدسي الاسكندراني والفقيه عيسى الهكاري (٣).ويذكر الأستاذ حسن عبد الوهاب

---

(١) السيوطي ج ١ ص ١٤٩ ، حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٨٣ ، محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين الأيوبي ، الاسكندرية ١٩٥٩ ص ١٧٩ — ١٨٣ .

(٢) حسن عبد الوهاب ، نفس المرجع ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

(٣) محمد زغلول سلام : الأدب في عصر صلاح الدين ص ١٨٦ .

عددا كبيرا من تلاميذ السلفى وزملائه، فمن الشعراء والأدباء أبو الفتح بدر بن نمير بن يونان الأنطاكى المعروف بنصر ، وأبو محمد بن الحسن بن عشير العبدرى النحوى ، وأبو محمد عبد الله بن سعيد بن خلف الخولانى الكتبى ، وأبو الحسن على بن محمد بن على الكتبى المعروف بابن الجيزى ، وأبو محمد عبد العزيز إسماعيل بن بربلك بن توهيب ، وتقية بنت غيث بن على الأرمنازى الصورى . . . إلى آخره (١) .

ولقد عمل صلاح الدين على تشجيع هذه الحركة العلمية بالثغر فأسس مدرسة وبيمارستانا وداراً للمغاربة فى الاسكندرية ، وفتحت هذه المدرسة أبوابها لعلماء المغرب والأندلس. والواقع أن التأثير المغربى الأندلسى واضح كل الوضوح فى الاسكندرية ، فلقد نزلها أئمة العلماء فى الحديث والفقه فى الأندلس نخص بالذكر منهم أبو العباس القرطبى صاحب المفهم فى شرح صحيح مسلم (توفى سنة ٦٥٦ هـ) ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى المقرىء الزاهد (توفى سنة ٦٧٢ هـ)، وأبو بكر محمد بن على الجيانى وأبو العباس أحمد بن عمر المرسى ، وأبو الحسن على بن محمد الخزرجى المعروف بابن عفيف ، وأبو على منصور بن لب الانصارى (٢). وفى أواخر القرن السادس الهجرى وبداية السابع ، ازدهرت الحياة الأدبية بالثغر ، ووجد عدد كبير من الشعراء والكتاب ذكر على بن ظافر بعض أسمائهم (٣) . وقد أحصى الأستاذ حسن عبد الوهاب تراجم لعلماء وأدباء اسكندريين أو توطنوا بالاسكندرية إبتداء من النصف الثانى من القرن السادس الهجرى حتى نهاية الثامن، فوجد أنها بلغت نحو ٢٥٠ ترجمة (٤) ، وذكر أسماء بعضهم فمنهم : عبد الكريم بن عطاء الله أبو محمد الاسكندرى (توفى سنة ٦١٢ هـ) ، ويحيى

---

(١) حسن عبد الوهاب : نفس المرجع ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ، محمد زغلول سلام ، نفس المرجع ص ١٨٦ .

(٢) راجع المقرى : نفح الطيب فى غصن أندلس الرطيب ج ٢ ، ٣ .

(٣) حسن عبد الوهاب : المرجع السابق ص ٣٨٨ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٨٩ — ٣٩٢ .

بن الصواف الاسكندرى (توفى سنة ٧٠٥ هـ) ومحمد بن قاسم النويرى مؤلف كتاب الإلمام بالإعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الاسكندرية ، وزهت الحياة الأدبية والعلمية فى عصر المماليك بانشاء المدارس ودور الحديث ، ولم يكد ينتهى القرن الثامن الهجرى حتى بدأت هذه الحركة فى الخمود والركود . وما لبث الفتح التركى أن قضى عليها تماما ، وقيض الله لها أخيرا من يبعثها من جديد فى عصرنا الحاضر .

ملاحق الكتاب

ملاحق الكتاب

١ – نيابة الإسكندرية

(نقلا عن صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٤ ص ٦٣)

" وهى نيابة جليلة ، نائبها من الأمراء المقدمين ، يضاهى فى الرتبة نيابة طرابلس وما فى معناها أو يقاربها ، وبها حاجب أمير عشرة ، وحاجب جندي ، ووال للمدينة ، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر ، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضى قضاة مالكى ، وقاض حنفى مستحدث ، وربما كان بها قاض شافعى ، والمالكى أكبر الكل بها ، وهو المتحدث فى أموال الأيتام والأوقاف . على أنه ربما ولى قضاء قضاتها فى الزمن الماضى شافعى ، وبها موقع يعبر عنه فى البلد بكاتب السر ، وناظر متحدث فى الأموال الديوانية ، ومعه مستوف وتحت يده كتاب وشهود ، وبها محتسب ، وليس بها قضاة عسكر ولا مفتو دار عدل ، ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتركز بها أمراء المقدمين والطبلخانات فى غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية فى البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى الحاجب . . . . وهذه النيابة مع جلالة قدرها ورفعة محلها ليس لها عمل يحكم فيه نائبها ولاقاضيها ومحتسبها ، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها لا يتعدى ذلك ، بخلاف غيرها من سائر نيابات المملكة ، وبها كرسى سلطنة بدار النيابة ، وعادة الخدمة السلطانية بها فى أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة ، وفى خدمته مماليكه وأجناد المائتين المتقدم ذكرهم ، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس ، ويسير فى موكبه

والشبابة السلطانية بين يديه حتى يخرج من باب البحر ، ويخرج الأمراء المركزون على حدتهم أيضا ، ويجتمعون فى الموكب ويسيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون ، ويتوجه النائب إلى دار النيابة فى مماليكه وأجناد المائتين ، وقد فارقه الأمراء المركزون وتوجه كل منهم إلى منزله . فاذا صار إلى دار النيابة : فان كان فى ذلك الموكب سماط ، وضع الكرسى فى صدر الإيوان مغشى بالأطلس الأصفر ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ومد السماط تحته ، وأكل مماليك النائب وأجناد المائتين وجلس النائب بجنبة من الإيوان والشباك مطل على مينا البلد ، ويجلس القاضى المالكى عن يمينه ، والقاضى الحنفى عن يساره ، والناظر تحته ، والموقع بين يديه ، ورءوس البلد على قدر منازلهم ، وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب ، فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب .

قال : وهذه النيابة مستحدثة ، وكان ابتداء ترتيبها فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج وفتكوا بأهلها وقتلوا ونهبوا وأسروا ، وكانت قبل ذلك ولاية تعد فى جملة الولايات الطبلخاناة ، وكان لواليها الرتبة الجليلة والمكانة العلية . "

ب – زيارة السلطان الأشرف قايتباى الأولى للاسكندرية
فى ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٣ ص ١٢٦ — ١٢٨)

" . . . وفى ربيع الأول سنة ٨٨٢ نزل من القلعة فى يوم السبت رابع عشرة ، وعدى إلى بر الجيزة ولم يشعر به أحد من الناس وقصد التوجه إلى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر وجهز سنيحة من البحر فى مراكب ، وسافر صحبته من الأمراء الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وازدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجم الخفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ، وسافر معه ساير المباشرين . . . فلما وصل السلطان مدينة الاسكندرية زينت له زينة حافلة وخرج إلى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف إينال وهو بالشاش والقماش،وكذلك قجماس الاسحاقى نايب ثغر الاسكندرية ، واصطفت الناس فى شوارع المدينة بسبب الفرجة ، فدخل السلطان فى موكب حافل وجميع من معه من العسكر ملبسين آلة السلاح بالعدد الكاملة والأتابكى أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء وقدامه أعيان المباشرين وأرباب الدولة ، وطلب طلبا حافلا وجرفيه مايتان وخمسون فرسا ، منها خمسون فرسا بالسروج الذهب والكنابيش،والبقية ملبسة بأنواع البركستوانات والجواغين المكفتة بالذهب والفضة والبقية من المخمل الملون وفى الطلب كجاورتين زركش وهى التى تعرف الآن بالحوش ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب والأوزان عماله والشبابة السلطانية،ومشت قدامه الأمراء الروس النوب بالعصى ، فشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل وكان له يوم مشهود . ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما شق من مدينة الاسكندرية

سقط الطاير الذهب من على القبة فنزل الأمير يشبك الدوادار عن فرسه وثبت الطاير على القبة . ثم ركب على فرسه ، ومشى . ثم أن بعض تجار الفرنج نثر على رأسه لما شق المدينة ألف بندق ذهب ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان أن يسقط عن ظهر الفرس من شدة ازدحام الناس عليه حتى أدركه الأمير تمراز رأس نوبة النوب وفى يده عصاة فضرب بها الناس حتى خلص السلطان ، ومشى . واستمر فى ذلك الموكب حتى خرج إلى باب البحر الذى هناك فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان العادة القديمة أن السلطان إذا دخل مدينة الاسكندرية تفلك أبواب المدينة وتلقى على الأرض إلى حين يرحل السلطان على المدينة . فلم يوافق السلطان قايتباى على فلك أبواب المدينة وأبقى كل شىء على حاله . وهذا من عهد الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون لم يدخل الإسكندرية سلطانا . وقد دخلها مرتين : المرة الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة لما طرق الفرنج ثغر الاسكندرية ، فدخلها على جرائد الخيل . وأما فى المرة الثانية فكان سنة إحدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له خليل بن عرام نايب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشت بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة وتوجه من هناك إلى الإسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد إلى القلعة . ثم توجه بعده للإسكندرية الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق فى سنة أربعة عشر وثمان مائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود ، فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو فيها من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم من الثلث إلى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وعد ذلك من محاسن الناصر فرج (١) . انتهى ذلك . ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف قايتباى . فلما نزل بالمخيم مد له هناك

---

(١) كرر ابن إياس وصفه لزيارة الناصر فرج بن الظاهر برقوق لثغر الاسكندرية فى ص ٤٢٦ ج ٤ .

قجماس نايب الإسكندرية مدة حافلة ، ثم أخلع على الملك المؤيد ونايب الاسكندرية ، ورجعا إلى دورهما وصحبتهما الأمراء قاطبة فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب بالكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه ، ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافله ، ثم أنه توجه إلى نحو مكان المنار القديم الذى كان بثغر الإسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا فبنى به برجا معظما ، وهو الموجود الآن كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . ثم إن السلطان رحل عن الاسكندرية وتوجه إلى نحو إدكو ودمنهور . . . " .

ج – زيارة السلطان قايتباى الثانية للإسكندرية

فى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الثالث ص ١٥٠ ، ١٥١)

" . . . وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان إلى ثغر الاسكندرية وهى السفرة الثانية ، فتوجه من البحر فى عدة مراكب كثيرة ، وكان سبب توجه السلطان من البحر لعدم الطريق من كثرة ماء النيل على افتراش الأراضى ، وكان معه من الأمراء الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك من حديد ، والأمير أزبك اليوسفى الخازندار ، أحد الأمراء المقدمين ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشرات والجم الغفير من الخاصكية ومن المماليك السلطانية ، وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر ابن مزهر وغيره من أعيان المباشرين ، وكان معه الشهابى أحمد بن العينى ، وسيدى منصور بن الظاهر خشقدم ، وغير ذلك من الأعيان . . . وكان سبب سفر السلطان إلى الإسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك ، وقد انتهى العمل منه ، فتوجه إليه ليرى هيئته ، فلما دخل مدينة الإسكندرية لم يوكب بها مثل أول مرة ، ولاحملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالمخيم ، مد نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم توجه إلى رشيد ، وكشف على البرج الذى أنشأه بها ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم فجاء من محاسن الزمان ومن أعظم الأبنية وأجل الآثار الحسنة :

وقيل فى صفة بنيان هذا البرج أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح من الساحل حتى ينتهى إلى البرج ، وقد بنى على أساس المنار القديم الذى كان بالاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ، ينظر منه

من مسيرة يوم إلى مراكب الفرنج وهى داخلة إلى المينة ، وجعل بهذا البرج جامعاً بخطبة ، وطاحونا ، وفرنا ، وحواصلا ، وأشحنهم بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحلا معمرة بالمدافع ليلا ونهارا بسبب أن لا تطرق الفرنج للثغر على حين غفلة ، وجعل به جماعة من المجاهدين قاطنين به دايما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل عليهم شادا من خواصه يقال له قانصوه المحمدى، وهو الذى ولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى ، وقيل إن السلطان أصرف على بناء هذا البرج زيادة على المابة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف ، ثم أن السلطان أقام بثغر الاسكندرية أياما ورحل عنها " .

١ — زيارة السلطان قانصوه الغورى الاولى للاسكندرية

في ذي القعدة سنة ٩٢٠ هـ

(من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور الجزء الرابع ص ٤٢٣ — ٤٢٥)

" . . . وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه إلى ثغر الاسكندرية فانه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكية فى بولاق ، فتغدى هناك ، ثم عدى إلى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية فأقام به خمسة أيام ، قيل إنه كان منتظرا لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند . فلما ورد عليه كتب العقبة ، اطمأن ، ورحل من المينة وقد قاسى العسكر فى التعدية مالا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر ، ثم إن السلطان توجه من المنية إلى المنصورية ، وأقام بها يوم وليلة ، ثم توجه من هناك إلى البحيرة ، فأقام بها يوم وليلة واستمر يرحل من مكان إلى مكان إلى أن نزل بالنجيلة فأقام بها يومان وليلتان ، وأحضروا له الصيادون هناك تمساح ، فأمر بتوسيطه بين يديه ، فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به إلى يوم الأحد ، ثم أوكب من هناك ، ودخل إلى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشرة ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك . ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفته بل لبس تخفيفة صغيرة مدوره وعليه كامليه مخمل أحمر بصمور وحمل الأتابكى سودون العجمى القبة والجلالة (١) على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب

(١) الجلالة هى هلال كان يتوج قبة السلطان وجعل مكان الطير .

عوضا عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من المدينة فى موكب
حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة .
فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ
فى غاية التزحل والخراب ، ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم
الأتابكى سودون بالحلالة التى على القبة بعض السقائف التى هناك ، فانكسرت
تلك الحلالة نصفين وسقطت على الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك
انكسرت الرصافية التى كانت عليها ، ثم إن السلطان خرج من باب البحر
الملح وجلس بالخيم الشريف ، فأرسل إليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية
تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير
ذلك ثم قدم إليه الخواجا ابن أبو بكر تاجر السلطان تقدمة حافلة ، ولم يكن
بثغر الإسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ،
وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم
صاروا يأخذوا من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة
من الدخول إلى الثغر فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى
قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة
والبقية خراب لم تفتح . وكانت الاسكندرية من أجمل مدائن الدنيا حتى
قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة
البناء ، مفروشة بالرخام الملون وفى كل دار منها حمام تختص بها ، وكان
بها اثنى عشرة ألف بقال يبيعون البقولات من بعد العصر إلى العشاء ،
وكان بها أربعين ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم
والقبط ستمائة ألف إنسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب الروم
الكبار وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار الذى هى بها الآن .
ثم إن السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملية المخمل الأحمر التى
كانت عليه ، وأخلع على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر .

وفى ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكية على خدا بردى نائب الاسكندرية وقالوا له أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفى ، كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى إلى الإسكندرية ، فلم يعطيهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به ، وما سلم من القتل إلا بعد جهد كبير . ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام . فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له موادن (١) المدينة وعلقوا على شراريف الصور (٢) كل واحدة قنديل . فلما أصبح السلطان ركب وضرب (٣) الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذى هناك ثم توجه إلى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى ، فطلع فى البرج هو والأمراء ، وأرموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الابراج الذى بثغر الإسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل . وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بإمرة الطبلخاناه . ثم فى ليلة الأربعين سابع عشرة أحرق السلطان فى الوطاق احراقة نفط حافلة على شاطىء البحر الملح . ثم فى يوم الأربعاء سابع عشرة رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية فكان مدة إقامته بها يومان وليلتان " .

---

(١) جمع مئذنة .

(٢) يقصد شرفات السور التى بأعلاه .

(٣) كانت العادة تجرى وقتئذ على أن يخرج السلطان فى موكب لعب الكرة ويخرج معه الجوكندار أى حامل عصا الكرة .

٥ — رحلة سفير غرناطة إلى السلطان الظاهر جقمق

سنة ٨٤٤ هـ . (١)

(نص نشره الدكتور عبد العزيز الأهوانى فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : المجلد السادس عشر ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٤ ، ص ٩٨—١٠٥)

" . . . ورودس هذه ، جزيرة كبيرة تقابل بر التركية ، وهى منه على نحو ستة عشر ميلا ، وبها مدينة كبيرة على ساحلها ، وهى موضع رباط للنصارى يتناوبون سكناها ، ويأتون إليها من أقاصى بلادهم . ولها ببلاد النصارى على ما حدثنى من أصدقه أوقاف كثيرة يجتمع من فائدها فى كل عام مائة ألف ونيف وأربعون ألفا من الذهب ، فهى بذلك كثيرة الذخائر والعدة . . . . وهى فى هذا العهد شديدة الإذاية على المسلمين . وذلك أن نحو ستة عشر جفنا غزوانيا كلها معدة للقرصنة ، لا يفترون عن الإغارة فى غالب أمرهم شتاء ولاصيفا . وجميع قراصين النصارى — دمرهم الله — ممن يواليها بتلك الجزور والبلاد إنما تزودهم ، وجهاز أمرهم منها . وبها يبيعون أسراهم وما يجلبون من أموال المسلمين من بر الشام وغيره. وكان فيها إذكنا بها أزيد من مائتى أسير من المسلمين رمنا أن نفدى منهم شيئا فلم نقدر ، لأن صاحب البلد لما سمع بذلك أمر بمنع الأسارى من

(١) هذا وصف لما شاهده سفير مملكة غرناطة فى طريقه بحرا إلى الاسكندرية ، سجله السفير بقلمه. والمؤلف يصف جزيرة رودس ويذكر الموقعة البحرية التى حدثت بين الأسطول المصرى وأسطول رودس . ثم يصف لنا إقامته بالاسكندرية فى ضيافة نائبها اسنبغا الطيارى ويصف إنتقاله منها إلى القاهرة برا إلى رشيد وعن طريق النهر من رشيد إلى ثغر بولاق . ويختتم هذا النص بوصف السفير لمقابلته للسلطان وذكر ما قدمه إليه من هدايا اندلسية .

الطلوع إلينا لما كان فى غرضه من أن يقدمهم إلى صاحب القاهرة فى هدية لعله يهادنه على ما بلغنا ، فانه منه فى خوف شديد " .

" . . . . وهذه المدينة من أحصن المدن وأمنعها . وعلى شرفات سورها عدة دواليب من خشب تديرها الريح وتحت كل دولاب منها أرحى تدور بدورانه لطحنهم ، وهى على أحكم صنعة وأحسن هندام " .

" . . . . . فوصلنا مدينة الاسكندرية — حرسها الله — عشية يوم الخميس من شهر رجب المذكور والحمـد الله عـلى الوصول فى كنف السلامة . ثم فى صبيحة يوم الجمعة ثانى يوم دخولنا وجهنا من يعرف بنا والى الاسكندرية ، وكان اسمه صنبغا الطيارى أحد أمراء الترك أنجدهم الله . فوجه إلينا جملة من عتاق الخيل التى لم يعهد مثلها قدودا وحسن هيئة وكمال زى . وذلك أنهم يصنعون بتلك البلاد قرابيس سروجهم من خالص الفضة ويموهونها بالذهب على إحكام صنعة وحسن وشى ، ويضعون مواضع الركوب منها مجالس من الديباج الملون ، ويجللون أكفال الخيل بستائر من الحرير المذهب مما يروق الطرف . فقدموا لنا من تلك الخيل ما ركبنا حين نزولنا من البحر ، ودخلنا فسلم على الأمير بالإسكندرية المذكورة ، وهم يدعو نه بملك الأمراء ، وكذلك كل من يلى المعامل الكبار منهم . فلما دخلنا عليه مرحب بقدومنا حين سلمنا عليه ، وأمر باحضار مشروب على عادتهم يرد مع من يرد عليهم من الضيفان والقصاد ومن يكرم عندهم . فجيء بأوانى زجاج رائق،فيها من مذاب السكر الممزوج بماء المورد مما يحيي النفوس وينعش القلوب ، فشربوا وشربنا . ثم أمر بانزالنا وإجـراء الضيافة علينا ، فانصرفنا وقد حانت صلاة الجمعة . ثم فى يوم السبت أنزلنا جميع ما كان لنا بالطرائد من الحوائج والوسق ، وأراحنا الله تعالى من البحر وأهواله والحمد لله . فأقمنا تحت إيالته ثمانية

أيام فى أهنأ عيش وأحسن حال . وكانوا يختلفون إلينا فى الغداء والعشاء بأنواع من المطاعم التى لم نعهد مثلها وبصنوف من الحلواء والمشروبات ، إلى أن تهيأ السفر إلى القاهرة حرسها الله فاكترينا جمالا حملناها لجميع ما كان عندنا من الحوائج والأثقال ، وأصحبنا الأمير المذكور أحد خدامه ليقوم بمؤنتنا فى الطريق وليعرف بنا . فارتحلنا منها ضحوة يوم الخميس الثالث عشر من شهر رجب المذكور إلى رشيد ، وصلناها عصر يوم الجمعة ثانى يوم ارتحالنا . . . » .

و - ذكر تاريخ قدوم سيف السلطان الملك الأشرف شعبان من القاهرة إلى الإسكندرية ونصب كرسي الملك بها سنة ٧٦٩ هـ

(من كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية ، مخطوطة رقم ١٤٤٩ بدار الكتب المصرية)

(ص ٨٩ و) . . . وفى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة تسع وستين وسبع مماية ورد سيف السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسن بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون من القاهرة إلى الاسكندرية ، فكان لدخوله الاسكندرية يوما مشهودا ، فتلقاه ملك الأمراء سيف الدين اسنبغا بن البوبيكرى والأمراء المجردون بها ، والحجاب الثلاثة المتقدم ذكر اسمايهم وهم : صلاح الدين بن عرام ، وبهاء الدين أصلان ، وبكتمر العمرى ، ثم قضاة القضاة وهم قاضى القضاة : كمال الدين الريغى المالكى ، وقاضى القضاة شهاب الدين الحلبى الحنفى ونوابهما ، واصطفت الناس بالمحجة العظمى لدخول السيف السلطانى المذكور فكان خزندار ملك الأمراء لابس الخلعة والسيف السلطانى على عاتقه الأيمن ، قابضا على قبضته بيده اليمنى ، وملك الأمـراء يحجب السيف وقضاة القضاة الواحد عن يمينه والآخر عن يساره ، والأمراء تحجب ملك الأمراء ، والشاويشية تصرخ ، والشبابة تزعق ، والخلق (ص ٨٩ ظ) يموجون من كثرتهم ، وذلك بعد أن وضع كرسى الملك بايوان دار الإمارة ، الحديد العمارة ، وهذا الإيوان المذكور ، عمره ملك الأمراء المذكور ، وقد فرش الكرسى بفرش الحرير ، ووشح أيضا بشقاق الحرير الملونة ، وعلق السيف السلطانى بصدر الكرسى ، وجلس ملك الأمراء

تحت الكرسى ، وجلست القضاة عن يمينه وجلست الأمراء بمجالسهم اللايقة بهم ، وانتصب الحجاب والجند قياما على أقدامهم ، وزعقت الشبابة وصرخت الشاوشية ومد السماط فأكلت الأمراء من تلك الموائد المنصوبة بقدر أكل الطاير ورفع السماط . . . . »

ز – زيارة الملك الأشرف شعبان للإسكندرية سنة ٧٧٠ هـ

(من كتاب الإلمام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية
في وقعة الاسكندرية ، مخطوطة رقم ١٤٤٩ بدار الكتب المصرية)

(١٢٩ ظ) وفى يوم الجمعة الرابع من جمادى الأول سنة سبعين وسبعمائة دخل السلطان الملك الأشرف شعبان بن الحسين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ثغر الاسكندرية المحروس ، وكان دخوله من باب رشيد فى ضحى نهار اليوم المذكور ، بعد أن تقدمته البزادرة (١) بالبزاة والصقور والشواهين والعقبان ، يقدمها باز أشهب يساوي بدرة ذهب ، يعقبها كلاب الصيد عليها أجلة الحرير المطرزة بطرز المذهب ، يتبعها الفهود التى أعينها كنار الوقود ، والفهود جمع فهد ويقال للفهد سبع الأيل ، وهو فوق الغلظ من الكلب ، مزوق بسواد وبياض وحمرة ، وذنبه كذلك . . . (١٤١ و) نعود إلى ذكر صفة دخول السلطان الملك الأشرف شعبان ثغر الاسكندرية المحروس وذلك أنه دخله من باب رشيد ، فسار بالمحجة العظمى ، وقد اجتمعت الرجال والنساء ، والعبيد والإماء لرؤيته ، فصاروا يدعون له والنساء صرن يزرغتن فرحا به ، لشبابه وحسنه وجماله ، وهو راكب فرسا أشهبا تدوس سنابكه شقق الحرير المفروشة على الأرض ، وأمراؤه يمشون بين يديه ، والشاوشية تزعق ، والمغنين بدفوفها تضرب ، والشعراء على ضرب الرباب تشعر ، والشبابة (٢) تشبب ، لها

---

(١) جمع بازدار وهو ماسك الباز وكان يشرف على طائفة البازدارية أو البزادرة أمير يعرف باسم أمير شكار .

(٢) الدف : طبلة صغيرة والرباب آلة موسيقية وترية والشبابة آلة موسيقية تشبه المزمار .

صوت مطرب ، فطربت الأسماع على حسن الإيقاع ، وتمايلت الأبدان كتمايل الأغصان والأفنان ، لحسن سماع تلك الألحان ، وقرت العيون بمشاهدة جمال السلطان ، وصارت الشبابة تشبب بغير خارجة لسان، بل كل ما نفخ فيها الإنسان أزيلت الأحزان كما قال بعضهم (١٤١ ظ) فى شبابة كالعنابة حيث قال :

ومقطوعة موصولة شقها النوى ... تخبر أخبارا بغير تكلم

تراها إذا هاج الهوى فى فؤاده ... تذيع من الإسرار كل مكتم

وكانت الحقباوات (١) تحجب السلطان وهما مملوكان، بيض الألوان، راكبان فرسان أشقران ، عليها أقبية الحرير الأصفر بطراز الذهب وعلى رؤوسها كوافى الذهب المزركشة ، متساويان فى سيرهما ، لايتعدى الواحد الآخر بعض خطوة ، والغاشية (٢) المتوجه بالطاير الذهب المشبه بالحمامة بيدى رجل ماش يديرها بأعلى رأسه يمينا ويسارا (٣) يقدمه غاشية ثانية مرصعة بالذهب بيد آخر ، وعلى عنق فرس السلطان رقبة من ذهب مرصعة بأنواع الذهب والجواهر ، والسلطان عليه قباء أخضر بفرو قاقون أبيض ، والجنايب (٤) ذوات الرقاب والكنابيش (٥) الذهب المزركشة المكللة بأحجار الجواهر ، تساق خلف مركوبه نحو خمسين جنيبا ، وكان السلطان إذ ذاك

---

(١) لعلها الأوجاقية اللذان يصحبان السلطان فى المواكب وكان كل منها يركب فرسا أشهبا برقبة من الأطلس الأصفر ويلبسان أقبية صفراء من حرير مطرز ومزركش .

(٢) هى : « سرج من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب » وكانت توضع على ظهر الفرس فوق البرذعة (أنظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٠ ، ج ٤ ص ٧) .

(٣) كان متولى الغاشية يعرف باسم الركاب دار .

(٤) الأفراس التى كانت رقابها مكسوة بقماش الأطلس الأصفر المزركش بالذهب . وكانت الرقاب توضع على أعناق الأفراس من أذنيها حتى نهاية أعرافها (صبح الأعشى ج ٤ ص ٨) .

(٥) هى مواضع الركوب منها .

سنه دون الستة عشر ، ووجهه من حسنه كالقمر ، فلم يزل سايرا بالمحجة إلى مسجد أبى الأشهب فعطف عطفته ، ومر على دار ابن الحباب إلى جفار القصارين ، إلى الصادر ، إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد ، فنثر عليه مقابل دار الطراز دنانير كثيرة التقطها الناس ، ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث ، فشاهد البحر الملح والمينة بها مراكب الفرنج . وفى ذلك اليوم لم يبق بالإسكندرية إفرنجيا تاجرا ولا عاجا غلاما إلا وتحصن بالمراكب خوفا من السلطان ، ثم أن السلطان شاهد قلاع السور وأبراجه التى تلى البحر مزينة بالعدد من الأسلحة والأتراس والشطفات الحرير الملونة ، والأعلام التى تخفق بالرياح ، تبتهج لرؤيتها الأبصار وترتاح الأرواح . ثم إن السلطان شاهد المكان الذى صعدت منه (١٤٢ و) العلوج السور والخندق الجديد الذى أنشأه الأمير صلاح الدين بن عرام مكان صعودهم ، ولم يكن قبل ذلك المكان خندقا ، بل كان الإنسان يأتى ماشيا إلى أن يلتصق بالسور . ثم شاهد السلطان أيضا الخندق الغربى المتجدد خلف الباب الأخضر المعروف بالمطرق ، ثم أنه دخل الاسكندرية من الباب الأخضر وسار إلى أن اجتاز بضريح الشيخ الصالح الفقيه العالم العلامة أبى بكر الطرطوشى ، ثم منه إلى رحبة الجامع الغربى إلى دار السلطان المجاورة له ، وقد امتلأت الطرقات بالناس يدعون له كبيرهم وصغيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب وفتح له الباب الأول والثانى مما يلى البلد (١) ، وسار به وزيره سيف الدين الأكز المتقدم ذكر ولايته بالاسكندرية بين السورين إلى أن أتى به دار الطراز ، فترجل ودخلها

---

(١) هذا نص صريح يدل على أن السور الأساسى الذى يلى البلد كان به بابان ، أما السور الثانى فكان له باب واحد ، فالسلطان يخرج من الباب الأول والثانى ويسير بين السورين .

صاعدا سلمها إلى أن أتى مواضع أنوالها واستعمالاتها ، فرأى كل صانع ينسج على منواله من أصناف الأقمشة المنمقة والبدلات المطبقة المتخذة لحريم السلطان المختلفة الألوان . قال بعضهم حدثنى أحد مماليك السلطان الخاسكية وكان بينى وبينه معرفة من القلعة بالقاهرة ، أن السلطان لما طلع دار الطراز قلع كلوتته (١) وأقبيته وتخفف حتى صار فى ملوطه ، وتبع نوفره ، وجعل يطوف على الأنوال ، يبصرها ، ويدخل رأسه تحتها لينظر أسفلها ، ويتفرج على الصناع كيف ينسجون ، وإلى مكاكيهم كيف يرمونها ولها يرجعون ، ويرفع رأسه يشاهد فى أعلا الأنوال الشيالين من الصبيان كيف يشيلون خيطان المسادى ولها يحطون ، وكيف تصنع الطيور المنسوجة والدالات والشادروانات وغيرها بتلك الخيطان الطالعة والهابطة إلى أن يكمل كل طاير وغيره . فلم يزل طايف يتفرج على نوع حتى اجتاز بشيخ كبير السن (١٤٢ ظ) ينسج بمنواله ، يموج تارة عن يمينه وتارة عن شماله ، برميه لمكوكه فى باطن مسديته ، فيظهر بذلك نسج بديع كزهر الربيع ، فقال السلطان له العافية يا أبى ، فلم يرفع الشيخ رأسه إليه ولا نظر له بعينيه ، ولا دعاله بالرد عليه ، بل صار مقبلا على نسجه ، ناظرا إلى سير مكوكه ورجعه ، فتعجب السلطان من مكابدته على شيخوخته ، وبديع تفرسه فى صنعته مع سكتته ، وكان ينبغى للشيخ حين كلمه السلطان أن يدعو له ويسأله معروفه ليرتفق به ، فما كان يجب سؤاله ، لأنه لولا رق له لكبر سنه وجهده فى العمل ما كلمه ، ولا كلمة إلا الخير يصله منه إليه لشفقته عليه . . . (١٤٤ و) ثم إن السلطان المذكور شاهد ما فى دار الطراز بالاسكندرية من عمل زراكش ورقوم وثياب حرير مذهبة مفروغ منها ، فاختار منها ثيابا يستصحبها معه ، وترك الباقى إلى حين تكملة نسجه ،

---

(١) من كلمة Calotte أى الطاقية الصوفية التى يضعها السلطان على رأسه والأقبية جمع قباء أى الثوب الذى يلبس فوق ثيابه الأخرى ويشبه المعطف .

ثم إن السلطان رأى زيرماء عليه قادوس فخار أحمر تشرب صناع دار الطراز من الزير المذكور ، ملأ بيده وشرب منه . حدثنى الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف البغدادى معلم دار الطراز لما سألته وقلت : بلغنى أن السلطان ملأ بنفسه بقادوس فخار على زير بدار الطراز وشرب منه ، فقال نعم ، عاينته يشرب من الزير المذكور وإن الصناع احتفلوا بذلك القادوس وسموه (١٤٤ ظ) قادوس السلطان ، وصاروا يقولوا اسقونا بقادوس السلطان . وصار له بينهم مزية ورفعة قدر وعظم شأن . فقلت فى ذلك القادوس بيتين مقصورين وهما هذين :

صار للقادوس ذكرا عندما .·. شرب السلطان منه وارتوى

فحوى فخرا دائما بجميل .·. الذكر ما بين الورى

ثم إن السلطان خرج من دار الطراز وأتى دار الصناعة فرأى ما فيها من الشوانى الغزوانية والمجانيق الشيطانية ، فرموا بها قدامه فاستحسن رميها ، ورجع من بين السورين ، إلى أن دخل الأسكندرية من الباب الأخضر . وسار إلى قصر السلاح فدخله ، وشاهد ما فيه من الأسلحة الكبيرة المدخرة من عهد الملوك السالفة ، بقاعات القصر المذكور ، فرسم بأن يعمل له به أيضا قاعة سلاح تسمى به كما سميت قاعات الملوك بهم ، فبنيت ، وجعل له فيها من السلاح الحديد شىء كثير ، فكان عمله لذلك حسنة كاملة ونعمة شاملة . وقد قيل فى هذا :

لست أرى للزمان سيئة .·. وهذه من فعاله الحسنة

بل وجهه أبيض يضىء سنا .·. وهذه فوق خده حسنة

وهذا القصر المذكور الحاوى للسلاح المذكور ، حرسه الله تعالى من الفرنج حين ظفرهم بالاسكندرية ، بعد أن أتوا إلى بابه مشاة وخيالة ، ألهمهم الله تعالى بمنه وكرمه أنه جامعاً للمسلمين يصلون به ، ويتعبدون فيه ،

فكفوا عن كسر بابه ، ودخولهم إياه ، ولو فهموه أحرقوه بعد أن كانوا حملوا منه العدد الكبيرة والأسلحة المتينة ، ولكن الله تعالى بفضله وإحسانه أعمى أبصارهم وبصايرهم عنه بزعمهم أنه مسجدا جامعا لصلاة المسلمين (١٤٥ و) ومنعهم له أيضا لأنهم لم يتعرضوا لخراب شيء من جوامع الإسكندرية ومساجدها وصوامعها خشية إخراب المسلمين لكنايسهم التي هي بالديار المصرية والشامية ، لأن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان رسم في أيام دولته بهدم كنايس النصارى ، فهدم منها بمصر والاسكندرية والصعيد والبحيرة والشام كثيرا ، لذلك لما ظفروا بالإسكندرية امتنعوا من خراب مساجدها خوفا مما تقدم من خراب كل كنايس النصارى ، فامتنعوا من ذلك خوفا من خراب بقيتها . . . (١٤٦ ظ) نعود إلى بقية خبر السلطان الملك الأشرف شعبان دخوله الاسكندرية ، وذلك أنه صلى العصر من يوم الجمعة بمسجد القصر المتقدم ذكره وركب وخرج من باب السدرة ، وقصد وطاق (١) المضروب بالموضع المعروف بالسرية شرقي ظاهر الإسكندرية بات به ، وأصبح يوم السبت مقيما نهاره ، فكانت الرجال والنساء والعبيد والإماء يتفرجون بوطاقه ، وبايوانه الخيام المنصوب ، والايوان المذكور من أحسن ما يكون من الخيام الناصع البياض وهو شاهق في الهواء ، مزخرف بأنواع التقاصيص الملونة ، وأرضه مفروش بالبسط . . . " .

---

(١) العسكر الذى ضربت فيه الخيام .

ج - منتخبات من معاهدة الصلح المعقودة بين الاشرف برسباى وملك أرغون ألفونسو الخامس سنة ٨٣٣ ﻫ

(من كتاب الوثائق الدبلوماسية العربية Los Documentos Arabes Diplomaticos dol Archivo de la Corona de Aragón ص ٣٧٣ — ٣٧٦)

" الفصل الرابع : أن جميع النظارين للمراكب على اختلاف أجناسها من رعية ملك أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الاسكندرية أو جميع المدن الاسلامية والسواحل لايلزموا باعطاء ولو شيئا بسبب من الأسباب ، ولا يغصبوا على ذلك ، ويكونوا متصرفين على أنفسهم وأموالهم ولا يلزموهم بالتفرق على العوائد القديمة .

الفصل الخامس : أن النظارين والتجار فى جميع مراكب رعية ملك أركون إذا حضروا إلى ميناء ثغر الاسكندرية وإلى جميع المدن بالسواحل من بلاد مولانا السلطان لا يلزموا بتفريغ بضاعة ولا متجر إلا الذين يختارون التجار لتفريغه ، ولا يلزموا إلا بموجب ما فرغوه وباعوه ، وأن جميع ما يفرغوه يلزموا بموجب ، وإن أرادوا شيئا من البضاعة يمكنوا من ذلك بعد وزن الموجب ولا يلزموا بشىء زائد غير ذلك .

الفصل السادس : إذا حضر أحد من النظارين أو التجار من رعية ملك أركون إلى ميناء ثغر الاسكندرية وسائر المدن من بلاد مولانا السلطان قبل تحدثهم فى بضائعهم ومتاجرهم وبعد تحدثهم أنه لا يلزموا شيئا من الموجب السلطانى ولا أحد من المباشرين والرعية بسبب ساير المتاجر والمراكب على اختلاف أجناسها إلا بموجب مولانا السلطان غير ما يباع من البضائع على العوايد القديمة .

الفصل الثامن : إن لا مولانا السلطان ولا أحد من الأمراء ولا أحد من المباشرين ولا من الرعية لا يأخذوا شيئا من بضاعة رعية ملك أركون ببحر الاسكندرية أو عشر دمشق ولا ببيروت ولا فى جميع بلاد مولانا الساطان من بضائعهم بثمن ولا بغيره إلا برضى صاحب البضاعة ومن كل بد إذا أراد مولانا السلطان أو أحد من مباشريه أن يأخذوا شيئا من البضائع والمتاجر الموجودة يكون ذلك باتفاق التاجر ورضاه إعطاء له الثمن مخلص بغير تعويق ولا تسويف ، ولا يلزمونهم ببيع ولا بشراء ولا يجبروا بشراء شيء ولا بوغاء على تجار رعية ملك أركون شيئا من البهار ولازاد ولا جوهر ولا شيء من المتاجر والبضائع بغير رضاهم بسبب من الأسباب ولو كان أحد من غير جنسهم يلزموا بشيء أجناس من جنوسه لايازموا رعية ملك أركون بذلك .

الفصل الرابع عشر : لايعوق لأحد من رعية ملك أركون ولا من التجار ما يركب بثغر الاسكندرية من الذهب لأحد من رعية مولانا السلطان ولا من التجار ولا من سائر الطوائف إلا أن يكون بأمر مولانا السلطان أو مولانا ملك الأمراء أو أحد من مباشرى الديوان .

الفصل الرابع والعشرين : إن مولانا السلطان يرسم بعمارة فندق للكتيلان وببنائه من غير أن يكلفوا التجار ولا القنصل بشيء من ذلك .

الفصل الخامس والعشرين : إن أحد من التجار رعية ملك أركون إذا هلك فى بلاد مولانا السلطان فيكون جميع موجوده تحت يد من يكون أوصى إليه ذلك،وإن مات من غير وصيته يكون ماله تحت يد القنصل أو تحت يد أحد من تجار الكتيلان الذين يكونوا موجودين فى المكان الذى هلك فيه ، وإذا لم يكون ثم قنصل ولا مولانا السلطان،فلأحد المباشرين الوصية إليهم فى ذلك . . . . » .

(تم الكتاب بعون الله وتوفيقه)

المراجع والفهرس

مراجع الكتاب

أولا - مصادر عربية قديمة

١ — البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٠١ .

٢ — ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) : كتاب روض القرطاس ، الجزء الأول نشره تور نبرج Carlus Johonnes Tornberg ، أبسال Upsal ، سنة ١٨٣٩ — ١٨٤٣

٣ — ابن إياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، الأجزاء الثانى والثالث والرابع ، نشره باول كاله Kahle ، ومحمد مصطفى وموريتس سوبرنهايم Sobernheim اسطنبول ١٩٣١ — ١٩٣٦ .

٤ — ابن بسام الشنتريني (أبو الحسن على) : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع من المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .

٥ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، نشره Codera ، مدريد ١٨٨٣

٦ — ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى) : رحلة ابن بطوطة ، المسماة " تحفة النظار ، فى غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار ، القاهرة ١٣٢٢ هـ

٧ — ابن جبير اندلسى (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسى) : رحلة ابن جبير ، نشره وليم رايت William wright ، العدد الخامس من مجموعات جب التذكارية ليدن ١٩٠٧ .

٨ — ابن حوقل النصيبى : كتاب صورة الأرض ، تحقيق Kramers ، ليدن ١٩٣٨ .

٩ — ابن الخطيب لسان الدين) : كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، نشره ليفى بروفنسال Levi - Provençal ، الرباط ١٩٣٤ .

١٠ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الأول (المقدمة) طبعة مصر ، مطبعة التقدم .

١١ — ابن دقماق (إبراهيم بن محمد) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، الجزء الخامس ، بولاق ، ١٣٠٩ هـ .

١٢ — ابن رسته (أبو على أحمد بن عمر) : كتاب الأعلاق النفيسة ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية Bibliotheca Geographorum Arabicorum ، نشره دى غويه De Goeje ، ليدن ١٩٨١ — ١٩٨٢ .

١٣ — ابن شاهين الظاهرى (غرس الدين خليل) : كتاب زبدة كشف الممالك ، وبيان الطرق والمسالك ، نشره بول رافيس Paul Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ .

١٤ — ابن عبد الحكم (عبد الرحمن) : فتوح مصر وأخبارها ، طبعة تورى ، نيوهافن ١٩٢٢ ، وطبعة ليدن ١٩٢٠ .

١٥ — ابن عبد المنعم الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله) : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشره ليفى - بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

١٦ — ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذانى) : مختصر كتاب البلدان ، الجزء الخامس من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٨٥ .

١٧ — ابن مماتى (الأسعد) : كتاب قوانين الدواوين ، جمعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣ .

١٨ — ابن واصل (جمال الدين) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال ، الجزء الثانى ، القاهرة ١٩٥٧ .

١٩ — أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل) : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزآن ، القاهرة ١٢٨٧ هـ

٢٠ — أبو عبيد الله البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشره البارون دى سلان Bon De Slane تحت عنوان Description de L'Afrique Septentrionale ، الجزائر ١٩١١ .

٢١ — السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : كتاب التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، بولاق ١٨٩٦ .

٢٢ — السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ١٩١٠ — ١٣١٢ .

٢٣ — السيوطى (جلال الدين) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، جزآن ، المطبعة التجارية ، مصر ١٣٢٧ هـ

٢٤ — الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ج ٥ ، مصر ١٣٢٦ هـ

٢٥ — عبد اللطيف البغدادى (موفق الدين عبد اللطيف) : الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، القاهرة ١٨٧٠ .

٢٦ — على مبارك : الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها ، المعروفة بالخطط التوفيقية الجزء السابع ، بولاق ١٣٠٥ هـ

٢٧ — القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الرابع ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٥

٢٨ — المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) : مروج الذهب ومعادن الجوهر فى التاريخ ، الجزء الأول ، طبعة مصر ١٣٤٦ هـ

٢٩ — « : كتاب التنبيه والإشراف ، طبعة مصر ١٩٣٨ .

٣٠ — المقرى (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، الأجزاء الثلاثة الأولى ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

٣١ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : كتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، جزآن ، طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .

٣٢ — « : السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشره وحققه الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣٣ — « : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣٤ — « : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣٥ — النويرى (محمد بن قاسم) : الالمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام فى الأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية ، مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، رقم ١٤٤٩ تاريخ .

٣٦ — ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى) : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ليبزج ١٨٧٠ .

٣٧ — اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان ، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية ، ليدن ١٨٩١ .

ثانياً - مراجع عربية حديثة

٣٨ — إبراهيم أحمد العدوى : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣٩ — « : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨

٤٠ — ابراهيم جمعة : جامعة الإسكندرية ، القاهرة ١٩٤٤ .

٤١ — ابراهيم على طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٤٢ — إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة ج ١ القاهرة ١٩٤٦ .

٤٣ — « : مصر فى عصر البطالمة والرومان ، مقال فى " المجمل فى التاريخ المصرى " ، القاهرة .

٤٤ — أحمد السيد دراج : جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٩ .

٤٥ — السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٠ .

٤٦ — السيد عبد العزيز سالم : المآذن المصرية : نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤٧ — « : الاسكندرية ، مقال فى دائرة معارف الشعب ، العدد ٨٥ ، القاهرة ١٩٥٩ .

٤٨ — « : المساجد والقصور فى الأندلس ، القاهرة ١٩٥٨ .

٤٩ — « : مساجد ومعاهد ج ٢ ، (كتاب الشعب رقم ٧٨) القاهرة ١٩٦٠ .

٥٠ — : الأندلس : بحث طويل بدائرة معارف الشعب العدد ٦١ ، ٦٤ ، ١٩٥٩ .

٥١ — « : الحكم الربضى : بحث بدائرة معارف الشعب ، العدد ٦٧

٥٢ — السيد عبد العزيز سالم : التخطيط ومظاهر العمران فى العصور الاسلامية الوسطى ، مقال بمجلة (المجلة) العدد التاسع ، سبتمبر ١٩٥٧ .
٥٣ — « : بعض التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية الاسلامية ، مقال بمجلة (المجلة) العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ .
٥٤ — بتلر : فتح العرب لمصر ، ترجمة من الانجليزية الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، القاهرة ١٩٣٣ .
٥٥ — جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ١٩٥٧ .
٥٦ — « : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٠ .
٥٧ — جمال الدين الشيال : الاسكندرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الإسكندرية التجارية عن مدينة الاسكندرية ، القاهرة ١٩٤٩ .
٥٨ — « : الاسكندرية : طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، بحث طويل فى المجلة التاريخية المصرية أكتوبر سنة ١٩٤٩ .
٥٩ « : الفسطاط ، مقال فى مجلة كلية الأداب جامعة الإسكندرية ، المجلد ١٢ ، ١٩٥٨ .
٦٠ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، القاهرة ١٩٥٨ .
٦١ — حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٦ .
٦٢ — « : الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، مقال فى مجلة الكتاب عدد يناير سنة ١٩٤٧ .
٦٣ — « : قلعة قايتباى : أثر إسلامى عظيم وسط البحر ، مقال بجريدة الأهرام الصادر فى ٢٥ يونيو ١٩٤٩ .

٦٤ — حسين مؤنس : أثر ظهور الإسلام فى الأوضاع السياسية والاقتصادية فى البحر المتوسط ، مقال بمجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو سنة ١٩٥١ .

٦٥ — زكى على : الاسكندرية : تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها فى عصر البطالمة ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلد الثانى سنة ١٩٤٤ .

٦٦ — « : الاسكندرية فى عهد البطالمة والرومان ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته الغرفة التجارية بالاسكندرية ، ١٩٤٩ .

٦٧ — زكى محمد حسن : الفن الإسلامى فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٣٥ .

٦٨ — « : فنون الاسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .

٦٩ — سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى عصر دولة المماليك البحرية القاهرة ١٩٥٩ .

٧٠ — سيدة الكاشف : مصر فى عصر الولاة ، منذ الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ، القاهرة ١٩٥٩ .

٧١ — سيدة الكاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشديين القاهرة ١٩٦١ .

٧٢ — صديق شيبوب : جمهورية أندلسية بالاسكندرية ، مقال بمجلة الكتاب فبراير ١٩٤٩ .

٧٣ — عبد الرحمن زكى : عواصم مصر الاسلامية ، فصل من كتاب " فى مصر الاسلامية " القاهرة ١٩٤٧ .

٧٤ — « : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ، القاهرة ١٩٦٠ .

٧٥ — عبد العزيز الأهوانى : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة فى

القرن التاسع الهجرى ، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول مايو ١٩٥٤ .

٧٦ — عبد العزيز مرزوق (محمد) : الزخرفة المنسوجة فى الأقمشة الفاطمية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٧٧ — عبد الهادى شعيرة (محمد) : الاسكندرية من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى ، مقال فى الكتاب الذى أصدرته غرفة الاسكندرية التجارية سنة ١٩٤٩ .

٧٨ — عزيز سوريال عطية : الاسكندرية المسيحية ، مقال فى كتاب الغرفة التجارية ، ١٩٤٩ .

٧٩ — عمر طوسون : تاريخ خليج الاسكندرية القديم ، الاسكندرية ١٩٤٢

٨٠ — على إبراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

٨١ — فؤاد فرج : الاسكندرية ، القاهرة ١٩٤٢ .

٨٢ — فييت (جاستون) : المواصلات فى مصر فى العصور الوسطى ، مقال ترجمه الأستاذ محمد وهبى عن L' Egypte Contemporaine فى كتاب " فى مصر الاسلامية " القاهرة ١٩٣٧ .

٨٣ — كمال الدين سامح ، العمارة الاسلامية فى مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

٨٤ — كومب (إتين) : بعض منتجات من كتاب الإلمام بالأعلام للنويرى ، نشرها فى مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، العدد الثالث ١٩٤٦ .

٨٥ — لطفى عبد الوهاب : مقدمة لحضارة الاسكندرية ، دراسة فى حضارة البحر الأبيض ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

٨٦ — محمد توفيق بلبع : قلعة قايتباى بالاسكندرية : الرسالة التى تقدم بها لنيل درجة الماجستير من جامعة الاسكندرية .

٨٧ - محمد زغلول سلام : الأدب فى عصر صلاح الدين الأيوبى ، الاسكندرية ١٩٥٩ .

٨٨ - محمود أحمد : تاريخ العمارة الاسلامية فى مصر ، مقال فى كتاب " فى مصر الإسلامية " القاهرة ١٩٣١ .

٨٩ - محمود عكوش : مصر فى عهد الإسلام ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤١ .

٩٠ - وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن القاهرة ١٩٢٤ .

ثانيا - مراجع أجنبية

91 - ALARCON (Maximilano) R. GARCIA DE LINARES — Los Documentos àrabes diplomàticos del Archivo de la Corona de Aragón, Madrid, 1940.

92 - ARTHER LANE — Early Islamic pottery, London.

93 - BRECCIA — Alexandria ad Aegyptum, Bergamo, 1922.

94 - COMBE (Etien) — Le texte d'Al-Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie, dans: Bulletin of the Faculty of Arts, University of Alexandria, vol. III, 1946.

95 - » — Les Sultans Mamloûks Ashraf Sha'bân et Ghauri à Alexandrie, dans Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie, fasc. 30-31, 1936.

96 - » — Alexandrie musulmane; Notes de topographie et d'histoire de la ville, depuis la conquête arabe jusqu'à nos jours, dans, Bulletin de la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. XV, 1933.

97 - » — Notes sur les forts d'Alexandrie et de ses environs, dans: Bulletin de la Société Royale d'Archéologie d'Alexandrie No. 34, 1940.

98 - HEYD — Histoire du Commerce du Levant au Moyen-âge, t. I., Leipsig, 1923.

99 - JONDET (Gaston) — Les ports submergés de l'ancienne île de Pharos, Memoire de l'Institut d'Egypte, vol. X, le Caire, 1916.

100 - LANE-POOLE (Stanely) — A History of Egypt in the middle ages, London, 1936.

101 - LOVILLO (Jose Guerrero) — La-puerta de Còrdoba en la cerca de Sevilla, AL-ANDALUS, Madrid, 1953.

102 - MARZOUK (M. Abd el-Aziz) — Alexandria as a textile centre, B. I. S. A. C., t. XIII.

103 - PAUTY (Edmond) — Les Hammams du Caire, le Caire 1933.

104 - PEDRO MARTIR — Una Embajada de los Reyes Catòlicos a Egipto, traducciòn espanola por Luis Garcia, valladolid 1947

105 - PONS BOIGUES (Francisco) — Ensayo Bio-bibliografico sobre los historiadores y Geògrafos arabigo-espanoles, Madrid, 1898.

106 - TOUSOUN (Omar) — Description du Phare d'Alexandrie d'après un auteur arabe au XIIe siècle, dans: B. S. R. A. A. fasc. 30, 1930.,

107 - Viajes de BENJAMIN DE TUDELA, Madrid, 1918.

فهرس موضوعات الكتاب

صفحة

الفصل الأول

الاسكندرية منذ تأسيسها حتى الفتح العربى

صفحة

الفصل الثانى

الاسكندرية منذ فتح العرب لمصر حتى العصر الفاطمى

الفصل الثالث

الاسكندرية فى العصرين الفاطمى والأيوبى

صفحة

الفصل الرابع

الاسكندرية فى عصرها الذهبى (عصر المماليك)

صفحة

الفصل الخامس

حضارة الاسكندرية فى العصر الاسلامى

ملاحق الكتاب

فهرس الأشكال والخرائط

صفحة

صفحة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ٥ شارع مسبيرو — بالقاهرة ج.ع.م.
فرع الاسكندرية — ٢ ميدان التحرير